

تصدرها رابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

المستشرقون والقرآن

٢

بقلم
د/ إسماعيل سالم عبد العال

السنة العاشرة - العدد ١٢٠ - العام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م



بسم الله الرحمن الرحيم



تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى والله عزيز حكيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين، ونورا للمتقين.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب «دفاع عن القرآن» نبسط فيه بالنقد كتاب المستشرق الفرنسي بلاشير «القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره» بعد ان قدمنا في الجزء الاول لمحة عن الاستشراق وأثره في حياتنا الفكرية وواجبنا ازاءه وعرفنا ببعض المستشرقين ودراساتهم، ومنهم بلاشير، والمستشرق الانجليزي آرثر جفري الذي كتب مقدمة لكتاب «المصاحف» لابي بكر بن ابي داود، والذي حققه اول مرة ــ هذه المقدمة ــ ملأها افتراءات وشبهات دحضناها، وبينا تهافتها في الجزء الاول.

وقد احلنا على الجزء الاول في مواضع أثارها المستشرق الفرنسي بلاشير وتشابهت فيها قلوب المستشرقين واقلامهم.

وقد قسم بلاشير كتابه الى مقدمة وسبعة فصول، ووضع لكل فصل عنوانا، وتتبعنا ماقاله في كل فصل وآثرنا ان نضع نقدنا لكل فصل تحت العنوان ذاته، الذي اختاره المؤلف. فبعد المقدمة نجد:

الفصل الاول: «المصحف بنيته وتكوينه».

الفصل الثاني: «الرسالة القرآنية في مكة».

الفصل الثالث: «رسالة القرآن في المدينة».

الفصل الرابع: «الواقعة القرآنية وعلوم القرآن».

الفصل الخامس: «التفسير القرآني: اصوله واغراضه».

الفصل السادس: «القرآن والسنة مصدرا العقيدة والشريعة في الاسلام».

الفصل السابع: «القرآن في الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي».

وقد حمل الكتاب في مقدمته وفصوله اباطيل كثيرة وافتراءات عديدة بنسب متفاوتة ضد القرآن، ورسوله ﷺ رددنا عليها في موضعها وفندنا مافيها من شبه واكاذيب، أثارها عميد الاستشراق الفرنسي والموظف بوزارة الخارجية: بلاشير.

وقد كانت خاتمة المطاف، مقترحات وتوصيات استخلصناها من دراستنا ورصدنا للفكر الاستشراقي وآثاره في البلاد والعباد.

والله نسأل ان يكتب لهذا العمل القبول وان ينفع به ويجعله في ميزان حسناتنا ان ربي لسميع الدعاء.

الدكتور اسماعيل سالم عبد العال

الاستاذ المشارك في كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ وكلية الشريعة ـ جامعة ام القرى

مكة المكرمة حرسها الله

٧ رمضان سنة ١٤١٠هـ

٣١ مارس سنة ١٩٩٠م

المقدمة:

نقد كتاب: القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره. للمستشرق الفرنسي: بلاشير

مقـــدمة

تحت هذا العنـوان كتب بلاشـير احدى عشرة صفحة يؤرخ فيها لترجمـات القـرآن، ويذكـر فيها الخطوط الكبرى للآراء التي تصورها الاوربيون ازاء القـرآن مدة ثلاثـة عشر قرنـا، وكيف عرفـوا القـرآن وتعاليمه. ويعترف بلاشير ان هذه الآراء حملت في جوانبها من الخطأ مالايمكن ان ينفصل (في عصر قط عن الصورة البالغة التشويه التي كونتها اوربا المسيحية لنفسها عن محمد ﷺ)[1].

فهذا استفتاح جيد منه او قل استدراج جيد يؤكده انتهاج موضوعي يعبر عنه بلاشير بقوله: (وسنسعى في هذه المقدمة بجهد تجريدي لاينكر جوره، أن نرد الى القرآن ونقصر عليه النظر في الوقائع التي من شأنها ان تبرز طابع هذا الكتاب الديني)[2].

هكذا يستفتح عميد الاستشراق الفرنسي كتابه بأن افكار الاوربيين عن القـرآن وصـورتهم عنـه كانت بالغة التشويه في كل عصر!! وان دراسته عن القرآن وطابعه ستكون بحيدة تامة وجهد تجريدي!!

لكن الرجل بعد اربعة اسطر من هذا الكلام يردد اكذوبة ذكرها اخـوانه الذين يلحدون في آيات الله دون ان يلتزم بالتجرد المزعوم، ودون ان يرجع الى القرآن ذاته كما وعد!!

يقول: (كانوا وقتئذ ـ في الاوساط الكنسية ـ يتصورون دعوة محمد ﷺ[3] عمل منشق يدعي بأنه ملهم من الله بينما كان في الواقع قد تلقى

---

(١)، (٢) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير: ص/١١ ترجمة رضا سعادة طبعة دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، الطبعة الاولى سنة ١٩٧٤، وتلك هي الطبعة التي نحيل اليها ان شاء الله تعالى في بحثنا هذا.

(٣) زدنا الصلاة والسلام على رسول الله كما امرنا ربنا على النص المنقول ونتبع ذلك ان شاء الله مع بلاشير كما فعلنا مع اخيه من قبل أرثر جفري.

تعاليمه من راهب خارج عن العقيدة القويمة)[4].

فأي دليل استند اليه المؤلف لاثبات هذه الدعوى؟ وأي واقع هذا الذي يركن اليه؟

هذه مقولة رددها المشركون بالله قبله، وفندها القرآن وكذبتها الوقائع التاريخية.

لقد ادعوا ان رسول الله ﷺ تلقى تعاليمه من راهب يدعى بحيرى حين خرج الى الشام.

والثابت تاريخيا ان رسول الله ﷺ لم يخرج قبل البعثة الى الشام الا مرتين) مرة وهو صبي في التاسعة من عمره حين خرج مع عمه ابي طالب في تجارة له، واخرى حين كان شابا يتاجر لخديجة بنت خويلد مع غلام لها يقال له ميسرة[5].

وفي كلتا الرحلتين لانجد أثرا ـ أي أثر ـ تحدثنا به المصادر التاريخية عن حكاية التلقي هذه.

ثم ان تاريخ رسول الله ﷺ وسيرته، قبل البعثة وبعدها واضح لاغموض فيه، ناصع لا ابهام فيه، وتلك حقيقة يقر بها بعض المستشرقين. فهذا المستشرق ر. ف. بودلي يقول:

(اننا لانجد مادونه معاصرو موسى او كونفوشيوس او بوذا ولانعرف الا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته.. ولكننا نجد قصة محمد واضحة كل الوضوح.

ففي سيرة محمد ﷺ نجد التاريخ بدد الظلال والغموض، ونعرف

---

(٤) المصدر السابق: ١٢.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام. ١/ ١٨٠ ـ ١٨٢، ١٨٧ ـ ١٨٨ والراهب في الرحلة الاولى هو بحيري، وفي الثانية نسطورا. والطبعة التي رجعنا اليها هي: طبعة مصطفى الحلبي ـ الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م، بتحقيق مصطفى السقا وزميليه.

الشيء الكثير عن محمد ﷺ، كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا في ازمان اكثر قربا من زمانـنا. وما كان تاريخه الخارجي، وشبابه، واقاربه، وعاداتـه، خرافة من الخرافات، ولا شائعة من الشائعات. وما كان تاريخه الداخلي ــوقد وضح بعد رسالتهــ برواية مبهمة لمبشر غامض او مشوش، فبين ايدينا الآن كتاب معاصر، فريد في اصالته وفي سلامته لم يشك في صحته كما انزل اي شك جدي)[٦].

لقـد عرف تاريخ حياتـه ﷺ، ولقبـه قومـه قبل البعثة «بالصادق الامين» فكيف يصدق مع الناس ويكذب على الله؟!! والقرآن الكريم حين رد هذه الفـرية دعـا اصحـابها ومعتنقيها الى ان يحكموا الواقع التاريخي قائلا لهم: **﴿قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمـرا من قبله أفلا تعقلون﴾**[٧]؟! كيف اصدق معكم واكذب على ربي؟!!

ثم انه ﷺ لم يطلع على كتب قبل القرآن فهو أمي لايعرف القراءة ولا الكتابة: **﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون﴾**[٨].

وايضا فان هذاالراهب الاريوسي كانت لغته تختلف عن لغة محمد ﷺ فكيف يلقنـه ما اعجـز العرب فصاحة وبيانا **﴿ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان**

---

(٦) الرسول حياة محمد: ر. ف. بودلي: ٦ ترجمة الاستاذ محمد فرج، وعبد الحميد جوده السحار، مطابع دار الكتاب العربي.

(٧) سورة يونس ١٦.

(٨) سورة العنكبوت ٤٨، ٤٩.

(٩) يقول المعلق على كتاب بلاشير هامش ص/١٢: (ومن العجيب ان بعض الناس لايزال يردد قصة بحيرا ناسيا ان بصرى لم تعرف المذهب الاريوسي).

عربي مبين﴾[10].

فهذا المستشرق الفرنسي يتحدث ـ كاخوانه ـ عن واقع موهوم وعن خيال لاحقيقة له **﴿وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما﴾**[11].

* * * *

ويشير بلاشير في المقدمة الى بعض النقاط الاساسية التي كانت محل مجادلة بين الاسلام والمسيحيين على حد قوله: (كالامور المتعلقة بأقانيم المسيح، وبشخصية مريم، وبالاخلاقيات الجنسية، وعدم وجود معجزات ترد الى محمد ﷺ)[12].

وقد قرر القرآن ان المسيح ليس إلّها ولا ابن آله، ولا كوّن مع الروح القدس إلّها واحدا، فهو عبد الله ورسوله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا **﴿إنما الله إلّه واحد سبحانه ان يكون له ولد له مافي السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾**[13].

وأعز الاسلام مريم، ورفع ذكرها، وحكى القرآن خطاب الملائكة لها **﴿يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾**[14].

---

(١٠) سورة النحل ١٠٣.

(١١) سورة الفرقان ٥، ٦.

(١٢) القرآن: نزوله وتدوينه: ١٣.

(١٣) سورة النساء من الآية ١٧١ ـ ١٧٢.

(١٤) سورة آل عمران ٤٢.

ووافق الاسـلام الفطرة حين أقر الدوافع الجنسية، وجعل الزواج مصرفـا طبيعيا لها، فلم يستقـذرهـا ولم يكبتها كما فعل الرهبان، **﴿ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فمارعوها حق رعايتها﴾**(١٥) .

فكيف يجادل هؤلاء في مثل هذه الامور الواضحة الناصعة؟! لكن ان يقف المفكرون المسيحيون عند عدم وجود معجزات ترد الى محمد ﷺ فانه أمر ينطوي على جهل بطبيعة القرآن التي يبحث عنها بلاشير، وعلى جهل بما جرى على يد رسول الله ﷺ من معجزات.

فأمـا القـرآن: فانـه المعجـزة الخالدة التي تخاطب العقل البشري والنفس الانسانية، تلك المعجزة التي اتحدت مع المنهج خلافا للكتب السماوية السابقة، فقد كانت مناهج انفصلت عن المعجزات، فموسى عليه الصلاة والسلام كان منهجه متمثلا في «التوراة» ومعجزاته الحسية كانت العصا، واليد، وفلق البحر. . الخ، وعيسى كان منهجه متمثلا في «الانجيل» ومعجزاته إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، بإذن الله. . الخ. وهذه المعجزات الحسية حجة على من رآها، وهي متلائمة مع طبيعة الزمان(١٦) .

وجاءت المعجزة الكبرى التي تشمل الزمان كله، والمكان له، والبشر كلهم، في الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: (**مامن نبي من الانبياء الا قد اعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وانـما كان الذي أوتيته وحيا اوحاه الله اليَّ، فأرجو ان اكون**

---

(١٥) سورة الحديد من الآية ٢٧.

(١٦) راجع في ذلك حديثا مطولا اجرته مجلة اكتوبر مع الشيخ الشعراوي، عدد (٥٤٩) ٥ رمضان ١٤٠٧هـ ــ ٣ من مايو ١٩٨٧م صفحة/ ١٢، ١٣.

اكثرهم تابعا يوم القيامة)[17].

فمعجزة القرآن أتم وأمل، وأعم وأشمل، لانها قائمة خالدة، ممتدة عبر الزمان والمكان، ولذا تحدّى القرآن الناس جميعا، بل الإنس والجن، على أن يأتوا بمثله فما استطاعوا، تحدَّاهم أربع مرات[18]، قبل الهجرة، متدرجا في التحدي متنزلا فيه، فما استطاعوا، وهم أفصح الناس وأبلغهم. وليس في أمة من الأمم من كان يقيم أسواقا للمباراة في الفصاحة والبيان مثلهم. ثم تحدَّاهم مرة خامسة[19] بعد الهجرة فعجزوا ولايزال التحدي قائما!!

وكيف يزعم بلاشير ــومن على نهجهــ ان رسول الله ﷺ ليست له معجزات، وفي القرآن اشارة الى بعضها، وسنته ﷺ وسيرته مليئة بالكثير منها ورآها عشرات من اصحابه بل وآلاف، يمثل ابن تيمية لهذه المعجزات بقوله: (مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصا في كفه، وإتيان الشجر اليه، وحنين الجذع اليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره بما كان وما يكون، وإتيانه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما اشبع في الخندق العسكر من قدر طعام، وهو لم ينقص في حديث ام سلمة المشهور، وأروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء. ولم تنقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص، وهم نحو ثلاثين ألفا، ونبع الماء من بين اصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة

---

(١٧) هذا لفظ مسلم كما ذكر ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٠ طبعة عيسى الحلبي.

(١٨) راجع سورة الاسراء آية ٨٨، وسورة يونس آية ٣٨، وسورة هود آية ١٣، وسورة الطور آية ٣٣، ٣٤.

(١٩) راجع سورة البقرة آية ٢٣، ٢٤.

الحديبية نحو ألف واربعمائة او خمسمائة، ورده لعين ابي قتادة حيث سالت على خده فرجعت احسن عينيه، ولما ارسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الاشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت، واطعم من شواء مائة وثلاثين رجلا كلا منهم حز له قطعة، وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة، ودين عبد الله أبي جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقا، قال جابر: فأمر صاحب الدين ان يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فلم يقبل، فمشى فيها رسول الله ﷺ ثم قال لجابر: جَذْله فوفاه الثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا.

ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة)[٢٠].

﴿فأي آيات الله تنكرون﴾[٢١] أيها المستشرقون؟!

* * * *

ويتحدث المؤلف عن ترجمات القرآن وأثرها وبين ان اول ترجمة كاملة للقرآن لأندريه دورييه (١٥٨٠ـ ١٦٦٠م) قنصل فرنسا في القاهرة سنة ١٦٣٠م، وقد نشرت بالفرنسية سنة ١٦٤٧م، وفازت هذه الترجمة بشهرة دائمة رغم كل مافيها من الشوائب على حد قوله[٢٢].

لكن الذي يلفت النظر أن بلاشير قد أظهر تأثره إلى حد كبير بالمستشرق الألماني نولدكي ومدرسته في كتاب «تاريخ القرآن» وهو مستشرق نال من القرآن والاسلام ما أثلج صدر قرينه حتى ليجدها

---

(٢٠) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١١/ ٢٧٥ والوسق يساوي ستين صاعا، والصاع يساوي في عصرنا الحاضر ٢١٧٦ جرام فالوسق يساوي ٥٦٠ و١٣٠ من الجرامات.

(٢١) سورة غافر من الآية ٨١.

(٢٢) انظر: القرآن نزوله وتدوينه: ١٧.

فرصة يغمز القرآن بأنه نص (يغلب عليه الغموض، وتكثر فيه الالغاز، ويصعب دائما تتبعه في سياقه)[٢٣].

ولاينشأ الغموض الا في رجل لايعرف اللغة العربية واسرارها، ولاتكثر الالغاز الا عند رجل جهول بفقه اللغة وبلاغتها، ويصعب دائما تتبع القرآن في سياقه على كل من لم يتجرد لدراسته تجرد المخلصين، ولم يتحر الصدق وكان من المفترين **﴿انما يفتري الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾**[٢٤]. والقرآن ميسر لاهل الاخلاص والتجرد **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾**[٢٥].

ويختم بلاشير مقدمته بخاتمة سوء فيشكك في ان القرآن ليس كتاب عقيدة وشريعة، وهو أمر يدل على سوء طوية، وجهله المركب بطبيعة الرسالة الخاتمة التي تجمع بين الدين والدنيا، والمادة والروح، والقلب والقالب، والغيب والشهادة فلا تترك امرا للانسان عن عقيدته وايمانه، وعن تنظيم حياته وحياة المجتمع كله الا وتعرضت له اجمالا اوتفصيلا.

تلك الرسالة الآلهية التي كانت هي الاصل في الحضارة الاسلامية التي امتدت عبر الزمان والمكان امتدادا يتمنى المؤلف الفرنسي الا يعود مرة اخرى.

يقول: (ابتغينا ان نجمع هنا كل مالايجوز جهله عن رسالة قيل: انها عقيدة وشريعة، وكانت في الواقع عنصرا من العناصر الاساسية لحضارة مرت في اشمل تجديد)[٢٦].

---

(٢٣) المصدر السابق: ٢١.

(٢٤) سورة النحل ١٠٥.

(٢٥) سورة القمر ١٧.

(٢٦) القرآن نزوله وتدوينه: ٢١.

الفصل الاول
المصحف: بنيته وتكوينه



المصحف: بنيته وتكوينه

في هذا الفصل تعرض بلاشير للقرآن من حيث اسمه، ونزوله وجمعه، وقراءاته، وسوره، مما تعرضنا لبعضه في نقدنا لمقدمة آرثر جفري لكتاب المصاحف، ومن ثم فاننا نركز على مالم يثره آرثر جفري.

ويشعر القاريء المنصف، والباحث المتجرد «وهو قد ادعى ذلك شأن غيره من المستشرقين ـ مجرد دعوى لاحقيقة لها» ان هذا المستشرق في كتابه هذا الذي يعد خلاصة اعماله الفكرية الاسلامية يحمل كما هائلا من المغالطات، وقدرا كبيرا من التعصب والهوى، وقدرة هائلة على قلب الحقائق، للتشكيك في القرآن، تماما كما فعل مشركو قريش حين تواصوا باللغط واللغو فيه ﴿**وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1].

القرآن الذي انشأ أمة عظمى، وربى اعظم جيل عرفته البشرية على يد محمد ﷺ طهرا ونقاء واخلاصا وتجردا، القرآن الذي انشأ حضارة اسلامية تحتضن العلم والمعرفة وتؤازر التقوى، وتعرف ربها وتحني له جبينها، هذا القرآن العظيم في نظر ذلك الافاك الاثيم منزلاته (نقلها محمد)[2] ﷺ في زعمه، وهو كتاب (قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتابا بلبل بقراءته دأبنا الفكري اكثر من القرآن)[3] وانه كتاب يصعب الكشف عن ترابط موضوعاته[4].

وتلك دعاوى عامة يمكن ان يقولها اي كافر جاهل بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ، وليوضع هذا المستشرق الكبير في نظرهم في المكانة ذاتها، فقد قال بالقول ذاته!!

---

(١) سورة فصلت ٢٦. (٢) القرآن: نزوله، تدوينه: ٢٦. (٣)، (٤) انظر: السابق: ٤١.

يبدأ المستشرق ببيان معنى لفظ «القرآن» وانه بمعنى التلاوة، وقد يدل اصلا على فكرة التبليغ بالقول والدعوة الى الله والوحي المنزل عن طريق الملاك، ثم اخذت الكلمة المعنى العام المقدس بعد ان دون الكلام المنزل وكتب[٥].

لكن الذي يلفت النظر ان المؤلف لايدع أية فرصة ليشكك او يبلبل الافكار يقول: (ويمكن ان تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية التي يرد فيها لفظ مشابه جدا في هذا المعنى)[٦].

وكلمة «قرآن» لفظ اصيل في العربية، لاكته الالسن في عمق الجاهلية، يقول صاحب الصحاح اسماعيل بن حماد الجوهري[٧]: (قرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه الى بعض، ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلىً قط «اي لم يطرقها فحل» وما قرأت جنينا، اي لم تضم رحمها على ولد.

وقرأت الكتاب قراءة وقرآنا، ومنه سمي القرآن. قال ابوعبيدة: سمي القرآن لانه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه.**[٨] ـ اي جمعه وقراءته ـ **فاذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾[٩]، اي قراءته.

قال ابن عباس: فاذا بيّناه لك بالقراءة فاعمل بما بيّناه لك).

وهَبْ ان هذه الكلمة لها اصل سرياني، ثم امتزجت باللغة العربية، وصارت من مفرداتها، كما هو شأن اللغات الحية، تؤثر وتتأثر، فما يضير

---

(٥) انظر: السابق: ٢٣.

(٦) السابق: ٢٣.

(٧) الصحاح للجوهري: ١/ ٦٥ مادة قرأ بتحقيق احمد عبد الغفور عطار طبعة دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٨)، (٩) سورة القيامة: ١٧، ١٨.

رسالة السماء، وقد نزلت بلسان القوم؟! مايضير الوحي المنزل اذا كان اصل هذه الكلمة او تلك حبشيا او روميا؟!

ويعترف بلاشير (ان حياة النبي ﷺ او سيرته تنطوي على معطيات دقيقة «كما ذكر بودلي من قبل» لكنها متناقضة بعض الشيء)[١٠].

في اي شيء متناقضة؟! متناقضة في الظروف التي تلقى فيها محمد ﷺ أول تبليغ الهي له[١١]، ثم يدع القاريء مع هذه الدعوى اربع صفحات ثم يفسرها (بأن الجيل الاسلامي الاول تردد بين نصين من شأنهما ان يكونا منطلقا للدعوة هما «المدثر والعلق»[١٢].

وواضح من كلامه انه قرأ بعض الروايات التي تجعل سورة العلق او سورة المدثر هي اول مانزل من القرآن، لكنه يُلبّس على القراء، ويطوي الحقيقة ان كان عالما بها، ولا اظنه الا يجهلها، وان كانت الثانية فان اطلاق الاحكام على «الجيل الاسلامي الاول كله» وعلى «الروايات كلها» تعميم لاينتظر من رجل وعد بأن يلتزم النزاهة والتجرد!!

في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي في اول صحيحه مايؤكد ان اول مانزل ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾[١٣].

وفي صحيح مسلم: اول ما نزل من القرآن ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾[١٤] وفي صحيح مسلم ايضا رواية عن جابر: (اول ما نزل من القرآن سورة المدثر).

تلك هي الرواية التي قرأها المستشرق وتصور انها اوقعت الجيل

---

(١٠) القرآن: نزوله، تدوينه: ٢٤.

(١١) انظر السابق: ٢٤.

(١٢) السابق: ٢٧.

(١٣) انظر الحديث كاملا في صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١/٢٣ حديث رقم ٣.

(١٤) صحيح مسلم: ١/٩٧ طبعة صبيح واولاده.

الاسلامي كله في التردد في شأن اول الوحي، لكنه يجهل ان جابر بن عبد الله، يقصد اول مانزل بعد فترة الوحي عن رسول الله ﷺ، وانقطع عنه مدة. ودليلنا في ذلك ما روي في الصحيح عن جابر نفسه عن رسول الله ﷺ: قال (**بينا أنا امشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ياأيها المدثر قم فأنذر﴾ . .**)[15].

فأي تردد هذا الذي يزعمه ذاك البعيد عن الحق الغافل او المتغافل عنه؟!

* * * *

يقول المؤلف: (وبقدر ما كانت المنجمات تتوالى، كانت تجعل في مجموعات مختلفة الطول تسمى الواحدة منها سورة، وهي لفظة غامضة نجدها في بعض الآيات المكية)[16].

وجهل استاذ السوربون الذي يتتلمذ على ايديه ابناء الاسلام ــ بكل اسف ــ في هذه الفقرة جهل مركب من جهتين، من جهة اللغة، وجهة القرآن، فأما الاولى فانه لو كلف نفسه ببحث هذه الكلمة في المعاجم لعرف انه لاغموض فيها، ولا ابهام، وانها مشتقة من السور، وهو حائط المدينة، (فكأن كل مجموعة من الآيات محاطة بسور معنوي لايسمح لنقطة او لحرف بالدخول او الخروج، وهذا كناية عن الحفظ والعصمة)[17].

(١٥) هو في صحيح البخاري في باب كيف كان بدء الوحي وفي صحيح مسلم: ١/٩٨، ٩٩، طبعة صبيح.
(١٦) القرآن: نزوله وتدوينه: ٢٨.
(١٧) من تعليق الشيخ على محمد الزغبي هامش ص/٢٨ من المصدر السابق.

وقد يكون الاشتقاق من الابانة والارتفاع، قال الجوهري في الصحاح: (والسور ايضا: جمع سورة، مثل بسرة وبسر، وهي كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن، لانها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الاخرى) ثم استشهد بقول النابغة:

ألم تر أن الله اعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب

يريد شرفا ومنزلة)[18]، وكأن القاريء ينتقل بقراءته من السورة الى الاخرى من منزلة الى اخرى كما يقول ابن كثير[19]. فأي غموض في هذا يا استاذ السوربون؟!

واما جهله بالقرآن فيظهر في نسبته هذه اللفظة «سورة» الى بعض الآيات المكية، والصحيح انها وردت في القرآن بصيغة المفرد تسع مرات، ثمان منها في سور مدنية هي البقرة والتوبة والنور ومحمد والتاسعة في سورة يونس المكية، ووردت مرة واحدة بصيغة الجمع في سورة هود المكية[20].

فأي تخليط وتلبيس هذا ايها المترجم للقرآن؟!

ويثير بلاشير في هذا الفصل قضية تدوين القرآن الذي عالجناها من قبل مع اخيه في كتم الحقائق ونشر السخائم أرثر جفري، لكن بلاشير يزيد عليه استبطان شعور الصحابة ومعرفة عواطفهم وينسب اليهم احيانا عدم ضرورة تدوين الرسالة الجديدة[21]، وكأن الوحي نزل عليهم لا عليه ﷺ!!

---

(١٨) الصحاح للجوهري مادة سور: ٢/ ٦٩٠.

(١٩) انظر: تفسير ابن كثير: ١/ ٧.

(٢٠) انظر: المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وضع الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي: ٣٧٠ طبعة دار الشعب.

(٢١) انظر: القرآن: نزوله وتدوينه: ٢٨.

يزعم بلاشير ــوعليه إثم زعمه وافترائهــ ان الوحي المنزل في مكة لم يكتب بل كان يودع في الذاكرة، [وأن فكرة تدوين مقاطع الوحي الهامة (!!) التي نزلت في السنوات السالفة على مواد خشنة من الجلود واللخاف لم تنشأ الا بعد اقامة محمد ﷺ في المدينة، على ان هذه الحاجة الى التدوين لم تظهر فيما يبدو الا بين الحين والآخر «يعني يكتب جزءاً من القرآن ويترك جزءاً!!»، وربما كانت تنشأ عن تحمس شخصي لبعض نصوص تشتمل على أدعية، او احكام شرعية كانوا يرونها هامة (وما ليس بمهم فلا داعي لكتابته! هكذا يفتري الكذب هذا الافاك الكبير ويقسم القرآن الى مهم وغير مهم!!) ولقد شجع النبي حماسة التدوين هذه ولكنه لم يجعلها واجبة][22].

مادليلك على عدم وجوب الكتابة؟! لادليل.

هي تخرصات وافتراءات تطلق من مراكز الاستشراق، ومن رجل كان مديرا للدراسات العليا في السوربون يوما ما، ومشرفا على حقل الاسلاميات.

ونسأل: هل هذا المستشرق لايعلم ان لرسول الله ﷺ كتبة للوحي؟

والاجابة كما جاء في المقَدمة الفرنسية التي ملأها إفكا وبهتانا لترجمته للقرآن الكريم الى اللغة الفرنسية: انه يعلم ان هناك كتبة للوحي، بل يعلم ان منهم مكيين كالخلفاء الاربعة ومعاوية وخالد بن الوليد وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وغيرهم حتى انه في مقدمته تلك احصاهم اي الكتبة «مكيين ومدنيين» فكانوا اربعين[23]، وعدهم الشيخ الزنجاني كما سبق ان قلنا ثلاثة

---

(٢٢) السابق، ٢٨ ــ ٢٩.

(٢٣) انظر: هامش ٣ من صفحة ٦٩ من كتاب: مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح رحمه الله تعالى.

واربعين كاتبا، فاذا كان يعلم ذلك فلم يكتمه؟! والاجابة: ﴿**ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق**﴾[٢٤].

لقد كتب الوحي آية آية، وكلمة كلمة، وحرفا حرفا، فاذا نزلت آية او مجموعة من الآيات تلاها رسول الله ﷺ، وامر بكتابتها، او استدعى من الكتبة من يكتبها، وحتى لايلتبس بالقرآن نهى رسول الله ﷺ أن يكتب عنه غير القرآن[٢٥]، ثم يسمع من الكتبة ماكتبوه توثيقا للقرآن وتوجيها للصحابة، ثم معارضة جبريل في كل عام مرة، وفي العام الاخير مرتين.

وصار القرآن محفوظا في الصدور، مكتوبا في السطور. وكما تكفل الله بحفظه تكفل بجمعه ﴿**ان علينا جمعه وقرآنه. فاذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾[٢٦].

واذا كان المفتري على الله ورسوله يطوي هنا في كتابه: «القرآن»، كُتَّاب الوحي المكيين، ويذكرهم هناك في كتابه: «مقدمة الترجمة الفرنسية للقرآن»، فانه يثير في كتابه الاخير تهمة الارستقراطية لكُتَّاب الوحي المكيين الثلاثة الذين اختارهم عثمان رضي الله عنه مع زيد بن ثابت لكتابة القرآن[٢٧] وهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

---

(٢٤) سورة البقرة: من الآية: ١٠٩.

(٢٥) روى ابوسعيد الخدري عنه » قوله: (لاتكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه) صحيح مسلم: كتاب «الزهد باب التثبت في الحديث رقم ٦٩، وكان ذلك في بدء الوحي ثم سمح بعد ذلك بكتابة حديثه، راجع فصل تدوين السنة من كتابنا «دراسات في علوم الحديث» الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢٦) سورة القيامة ١٧، ١٨.

(٢٧) انظر: مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح: هامش ٣ من ص/ ٧٩.

أية ارستقراطية تلك التي يتهمهم بها وهم الذين نشأوا في مجتمع: رابطته اخوة الايمان، ووشيجته عقيدة الاسلام، ولحمته المساواة في الحقوق والتكاليف، ولا مكان فيه للاستعلاء بالهوى والحسب والنسب واللون والمال والجنس ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾[٢٨] بل الرفعة فيه بالايمان والعلم وتقوى الله ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات**﴾[٢٩].

فأية ارستقراطية يتحدث عنها في اطهر مجتمع عرفته البشرية؟ ثم كيف توجد تلك الارستقراطية وقد اشرك معهم أمير المؤمنين زيد بن ثابت الانصاري؟!

انه محض اختلاق، وسوء طوية للاسلام واهله.

وفي حديث طويل عن التدوين والقراءات، ذكر المؤلف دعاوى عريضة متهافتة، تعتمد على روايات شاذة، محاولا اقحام طوائف من الغلاة الخارجين عن الاسلام، مبينا موقفهم من القرآن، واطلق احكاما عامة لاسند لها، حول حذف بعض آيات من القرآن او سورا!! وهو كلام لم يبين لنا مصدره ولا الدليل عليه، والقصد من اثارة هذا ان نجعل الغلاة الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه جزءا منا نحن المسلمين، آراؤهم معتبرة، وافكارهم محل نظر واعتبار، ولن يكون ذلك؛ لان الله حكم عليهم، وعلى من انكر شيئا من القرآن بالكفر والخزي في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

---

(٢٨) سورة القصص ٨٣.
(٢٩) سورة المجادلة من الآية ١١.

﴿افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾(٣٠) .

اذا صح مانسبه المؤلف الى بعض الخوارج انهم انكروا سورة يوسف فما يضير الوحي السماوي، اذا كفر به او ببعضه بعض الناس او الطوائف؟!

واذا صح ان بعض غلاة الشيعة انكروا بعض آيات من سورة الحجر وسورة النور، فهل يعيب الشمس انكار ذي رمد طلوعها؟!.

﴿يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون﴾(٣١) .

ويرى بلاشير ان ترتيب القرآن ـ باستثناء سورة الفاتحة ـ جاء وفقا لتدرج هبوطي في الطول بحيث يمكننا القول بأننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس وان هذا التنظيم في مصحف عثمان كان نتيجة احداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص التي نزلت على محمد ﷺ .

وفي ثنايا رأيه يشعرك ان هذا الترتيب من صنع البشر لانه يبدو مطابقا لبعض العادات الخاصة بالساميين، وان فقهاء اللغة العراقيين في القرنين الثامن والتاسع كانوا يضعون القصائد الطوال في مقدمة دواوينهم التي تضم آثار الشعر العربي القديم(٣٢) .

ان الذي يميز بلاشير عن أرثر جفري ان باعه في المكر وانتحال

---

(٣٠) سورة البقرة ٨٥ .

(٣١) سورة التوبة ٣٢ .

(٣٢) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ٣٧، ٣٨.

الحجج «المتهافتة» اطول واوسع!! حتى ان المرء ليعجب كيف يجعل مناسبة الاحتفالات الدينية هي الباعث العملي لتجزئة القرآن الى ثلاثين جزءا لا علاقة بينها وبين التقسيم الى سور[٣٣].

ونحن لانعيد ماذكرناه من قبل عند ردنا على أرثر جفري، فيكفي ما سقناه هناك من أدلة تبين ان القرآن بترتيبه توقيفي عن رسول الله ﷺ وان الله عز وجل اراده بهذا الترتيب، ولو اراده منظما حسب الحوادث لكان، ولذا بعث الله جبريل يعارض رسول الله ﷺ في كل عام، بذات الترتيب، وفي العام الاخير مرتين تأكيدا وتوثيقا كما فصلنا من قبل.

ومن احكام بلاشير المفتراة والعامة قوله عن (بعض سور قصيرة جدا هي في مجملها ادعية، لابل اقوال في السحر)[٣٤].

فان كان يعني السور القصيرة كلها، فهو مفتر لانها ليست في مجملها ادعية، وان كان يعني بذلك سورة الفلق، ففضلا عن تعبيره القلق، الذي اضرب عن كونها ادعية، فانها ليست اقوالا في السحر كما زعم، بل ان ما جاء فيها متعلقا بالسحر هو آية واحدة من خمس وهي قوله تعالى: ﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾ أي اللاتي ينفثن في عقد من الخيوط يبغين بها الاذى والشر. فهل هذه الآية التي يعلمنا الله فيها الالتجاء اليه من شر كل ساحر وساحرة تسمى اقوالا في السحر؟!

قول الله القوي القادر، المهيمن على كل شيء، يقال عنه: اقوال في

(٣٣) انظر السابق: ٣٨ تجزئة القرآن الى اجزاء، واحزاب، وارباع، جاء في وقت متأخر لعله اواخر القرن الثالث الهجري او اوائل القرن الرابع انظر: التعريف بالقرآن والحديث ١٠٨/١٠٩ للشيخ الزفزاف طبعة المكتبة العلمية ببيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٣٤) السابق: ٣٩.

السحر، ايهاما للقاريء، ان محمدا ﷺ جمع هذه الاقوال من افواه الناس؟!

فأي افتراء اسود هذا ايها المستشرق الكذوب؟!

وفي آخر الفصل يصف اسلوب القرآن انه في اكثر السور المنزلة في مكة يغلب عليه طابع السجع، الشديد الوقع على نفوس السامعين، وهو بهذا يذكرنا بالصيغة التي بدت عليها الكهانة قبل محمد ﷺ لكنه يستدرك ويخفف من انتقاده للقرآن لعله يغري قارئه المسلم غير المتمكن فيقول: (على انه يجب الا نبالغ في هذه المقارنة لأن الآيات القرآنية تفرض نفسها من حيث الغزارة، وقوة التعبير بشدة لم تدرك قبل القرآن)(٣٥).

ولايفوت المؤلف قبل ان ينهي الفصل، ان يبين لنا، ان مدلول الرسالة الاسلامية اذا ربطنا النصوص القرآنية بعضها ببعض، يتضح وتتحدد خطوط القوة فيها، اذ هي رسالة جهاد وتحريم اكثر من أية رسالة اخرى(٣٦).

هكذا في كلمتين يحصر المستشرق رسالة الاسلام كله في كلمتين: الجهاد والتحريم، وكأن التحريم هنا هوالذي أراده حين وصف القرآن ـقبل ذلك بعدة اسطرـ بأنه كتاب شريعة، تخويفا للناس من هذا الدين الذي يحرم كل شيء!!

ودائرة الحل والاباحة في شريعتنا، اوسع من دائرة التحريم والحظر، وكأنه لم يسمع بالقاعدة المعروفة: «الاصل في الاشياء الاباحة»،

---

(٣٥) السابق: ٤٠.
(٣٦) السابق: ٤٢.

ولذلك وجدنا الآيات القرآنية تعدد ماحرم علينا، وتطلق ماعدا ذلك على انه حل لنا ﴿**ياأيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا**﴾[٣٧].

فكيف تُطلق تلك الاحكام العامة على هذه الشريعة التي نظمت حياة المجتمع، افردا وجماعات، في السلم والحرب، واستوعبت امبراطوريتين عظميين، الفرس والروم؟!

﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾[٣٨].

---

(٣٧) سورة البقرة من الآية ١٦٨.
(٣٨) سورة المائدة ٥٠.

الفصل الثاني
الرسالة القرآنية في مكة



الرسالة القرآنية في مكة

تناول بلاشير تحت هذا العنوان المقاصد القرآنية لما نزل في مكة من قرآن، او بتعبير آخر للقرآن المكي.

وواضح مما سبق من كلامه، ومن هذا الفصل وغيره تأثره تأثرا كبيرا بمنهج نولدكه وكتابه تاريخ القرآن الذي ظهر سنة ١٩١٩م الى سنة ١٩٣٨م على حد قوله[١].

وقد قسم نولدكه الفترة المكية ــ اعني مانزل فيها من قرآن ــ الى مراحل ثلاث، وجعل مانزل في المدينة مرحلة رابعة. ونولدكه نفسه متأثر بويل في هذا التقسيم[٢].

ولسنا بصدد عرض هذه المراحل، او تأصيلها، او بيان ميزاتها وسماتها، فان علماءنا السابقين ــ والمعاصرين كذلك ــ قد تناولوا هذه المسألة وبحثوها. ونخص بالذكر دراسة الشيخ الدكتور صبحي الصالح ــ رحمه الله ــ الذي رد على المستشرقين ردا وافيا، وفصل القول في كل مرحلة بما يفحمهم، ويبطل شبهاتهم وضلالهم[٣].

ونلفت النظر الى ان تقسيم نُولدكه الذي اعجب بلاشير قد تطرق اليه علماؤنا من قبل ووجهوا اليه الانظار، فهذا ابو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري المتوفي سنة ٤٠٦هـ يقول: (من اشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء، وترتيب

(١) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه، ٢٦.

(٢) انظر: هامش ٣ من ص ١٦٩ من كتاب: مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح رحمه الله تعالى.

(٣) في فصل: علم المكي والمدني من كتابه: «مباحث في علوم القرآن» السالف الذكر.

ما نزل بالمدينة كذلك، ثم مانزل بمكة وحكمه مدني، ومانزل بالمدينة وحكمه مكي)[٤].

لكن الذي يشغلنا هو ان نتعقب بلاشير في مفترياته في هذا الباب، فقد كان يرمي في آرائه التي لاتخلو من طرافة على حد قول الشيخ صبحي الصالح ــرحمه الله تعالىــ الى غاية لاتتفق وروح الدعوة الاسلامية[٥].

وأول مانلاحظ انه يطلق حكما عاما على المرحلة المكية الاولى، فيقول: (ان نصوص هذه الفترة الاولى لم تسلط الاضواء على اثبات عقيدة اساسية في الاسلام: ألا وهي وحدانية الله، بل يبدو ان سورة النجم «١٩ ــ ٢٥» تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة ثلاث من ربات المكيين، لكنما النص في وضعه الحالي يحتمل تصحيحا تخمينيا، الا ان الوحدة الالهية سرعان ماثبتت قاطعة وبدون مرد في سورة الاخلاص)[٦].

ونناقش هذا النص من جهتين:

الاولى: من جهة عدم تسليطه الاضواء على عقيدة التوحيد واثباتها، وهو امر في غاية الغرابة فان الآيات الاولى، والسور المكية التي نزلت في بداية الوحي، وفي تلك الفترة المكية الاولى، حسب تقسيمهم، تتناول عقيدة التوحيد فتعرف الناس بخالقهم، وبالوحي، واليوم الآخر، والحساب والجزاء، وتصف قدرة الله وآلاءه، وتعدد نعمه، وتهدد المكذبين بنبي الله بلقاء المصير الذي لاقاه الذين كذبوا الرسل من قبل،

---

(٤) البرهان للزركشي: ١ / ١٩٢ وانظر: مباحث في علوم القرآن: ١٦٩.
(٥) انظر: هامش ٥ من صفحة ١٨٣ مباحث في علوم القرآن.
(٦) القرآن: نزوله، تدوينه، ٥١.

وغير ذلك من الموضوعات التي تحتاج الى دراسة كاملة ورصد لها في سورها.

لكن المؤلف اقتصر على بعض مشاهد القيامة في القرآن وركز على صور الجحيم، وبعض صور النعيم التي وصفها بأنها تمثل افضل من كل ماسواه مافي الاسلوب من بساطة ايحائية[7].

واذا كنا لانقبل هذا التفاضل بين اساليب القرآن، باعتباره نوعا من المكر والاحتيال، ليجعل في القرآن فاضلا ومفضولا في الاسلوب ـ اقول: ان المؤلف جهل او تجاهل تعريف القرآن الناس في اول آياته وسوره بربهم، واقراره الاصول الاولى للعقيدة، والحقائق الاساسية لها. في أول آيات نزلت جاء قوله تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق**﴾[8].

انها توجه الرسول ﷺ ونحن من باب اولى ان نتصل بالله ربنا في اول امر يتلقاه رسول الله ﷺ وهو القراءة، ثم تعرفنا الآيات بالرب: انه ﴿**الذي خلق. خلق الانسان من علق**﴾، انها تدفع الانسان الى التفكير في خلقه ومبدئه كيف كان؟ ثم كيف صار؟ انه الله الذي تفضل وتلطف فهو ﴿**الذي خلق فسوى. والذي قدَّر فهدى. والذي اخرج المرعى فجعله غثاءً احوى**﴾[9] **كما تقول سورة الاعلى، احدى السور التي نزلت في الفترة المكية الاولى.**

وسورة النجم احدى السور المكية في مرحلتها الاولى: تعالج

---

(٧) القرآن: نزوله، تدوينه، ٤٨.
(٨) صدر سورة العلق؟
(٩) سورة الاعلى: ٢ ــ ٥ والغثاء الاحوى الذي يميل الى السواد بعد الاخضرار وهو بعد تحوله الى هذه الحالة صالح ايضا لطعام بعض الحيوانات او لغير ذلك.

اصول العقيدة، وتسلط الاضواء عليها، بعكس ماقاله ذلك الجهول او المتجاهل بلاشير، انها تعالج قضية الوحي في بدايتها فتبين حقيقته وطبيعته ﴿ان هو الا وحي يوحى. علّمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الاعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ «النجم: ٤ ــ ٩».

فكيف يزعم هذا المستشرق اننا لانجد خلال هذه الفترة لموضوع النبي المبشر في الصحراء الا معالجة مشتتة[١٠].

وتتناول السورة عقيدة الشرك، فتسخر من هؤلاء الذين اتخذوا هذه الاصنام آلهة، وهي لاحول لها ولاقوة، وسموها بأسماء من عند أنفسهم لادليل عليها ولابرهان، انها «اللات» التي كان يعبدها اتباعها في الطائف من اهل ثقيف وغيرهم، و«العزى» التي كانت في منطقة نخلة بين مكة والطائف، و«مناة» عند قديد بين مكة والمدينة.

اما الذين جعلوا الملائكة إناثا فانهم اعتقدوا ذلك ظنا وهوى، **﴿وان الظن لايغني من الحق شيئا﴾**.

وتؤكد السورة مفهوم المسؤولية والجزاء **﴿ألّا تزر وازرة وزر اخرى. وأن ليس للانسان الا ماسعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الاوفى﴾** «٣٨ ــ ٤١».

وتستعرض السورة في اواخر آياتها صورا من آثار خلق الله وقدرته وعظمته وهيمنته في الكون: **﴿وأن الى ربك المنتهى. وأنه هو اضحك وابكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الاخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه**

---

(١٠) واضح من الآيات صلة الوحي بالنبي وتعليمه له، وصفته، تماما كما ذكر الله ذلك في سورة التكوير «١٩ ــ ٢٥» وهي من السور المكية في مرحلتها الاولى.

هو رب الشعرى﴾ «**٤٢ ــ ٥٠**».

وبنـاء على هذه العقيدة الاســاسية بجـوانبها المتعددة تكون صلة الانسان بربه، وصلته بغيره. **﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلاَّ الحياة الدنيا﴾** «**٢٩**».

(وشعور الانسان بأن له خالقا خلقه، وخلق هذا الكون كله، وفق ناموس واحد متناسق، يغير من شعوره بالحياة، وشعوره بما حوله وبمن حوله، ويجعل لوجوده قيمة وهدفا وغاية اكبر واشمل وأرفع لان وجوده مرتبط بهذا الكون كله فهو اكبر من ذاته المعدودة الايام، واكبر من اسرته المعدودة الافراد، واكبر من قومه، واكبر من وطنه، واكبر من طبقته التي يطنطن بها اصحاب المذاهب المادية الحديثة وأرفع من اهتمامات هذه التشكيلات جميعا!!

انها مســألــة كبـيرة، هذا الايمان بالله، والايمان بالآخـرة، مسألة اساسية في حياة البشر، انها حاجة اكبر من حاجات الطعام والشراب والكســاء، وانها امـا ان تكون فيكون «الانسان» واما الاَّ تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان)[١١].

وذاك هو الحق الذي غفل او تغافل عنه اولئك المبعدون!!

. واما الجهة الثانية: فهي مايذكره المؤلف من أن الآيات «**١٩ ــ ٢٥**» تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى.

وانَّى لهذا المستشرق وأمثاله الذين يرددون هذا الافك ان يفهموا بلاغة القرآن واسراره؟!

(١١) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب: ٣٤١١/٦ طبعة دار الشروق، الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

ان القـرآن يذكر هذه الآلهة المدعاة بصيغة التعجب كما يفهم من السؤال «أفرأيتم؟» يشهر بها ويفضح عقيدة الشرك على الملأ كله . وهذه المعبودات جعلوا لها صلة بخرافة «أنوثة الملائكة» فهل يكون من العدل ان يجعلوا لله مايكـرهون بوصفهم هذه المعبودات بأنها بنات الله ، في الوقت الذي يكرهون هم ولادة البنات ﴿**واذا بُشِّر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم**﴾[١٢] .

﴿**تلك إذاً قسمة ضيزى**﴾ «النجم ٢٢» .

فأي تردد في الآيات أيهـا المستشرق؟ انـه الحسم الكامل للشرك والوثنية ، والخرافات والاساطير! !

ان الاصـول الاسـاسية للعقيدة ــوحدانية الله والوحي ، والبعث والحسـابــ قد تضمنتها الفترة المكية الاولى ، وتحدثت عنها باجمال ، وجـاءت بعدها السور المكية بفترتيها ــحسب تقسيم المؤلفــ تؤكد وتفصل هذا الاجمال ، وتسوق الادلة والبراهين ، وتعرض لآلاء الله في الكون ، وفي النفس ، وفي النبات والحيوانات والجماد .

والسور في الفترتين تطول نسبيا عن سور الفترة الاولى ، تمهيدا للفترة المدنية ، التي تناول فيها القرآن امر التشريع للمجتمع الجديد . فكل فترة تمهد للاحقتها ، وتأتي الاخرى فتفصل ماسبق اجماله ، وكل سورة وحـدة قائمة بذاتها تعالج موضوعا ، او عدة موضوعات معينة بحيث يرتبط اولها بآخرها ، وآخرها بأولها .

فاذا جاء جهول متعصب يدعي ان الفترة الثالثة من القرآن الذي نزل بمكـة كسـورة الصـافـات ، والـزخـرف ، والكهف ، وابراهيم ، والسجدة ، وغيرها ، لم تشر الى تجديد اساسي لا في الموضوعات ولا حتى

---

(١٢) سورة النحل ٥٨ .

في طريقة معالجتها فهو صاحب هوى، ومحرف لكلمات الله وآياته!!.

ويضيف المؤلف افتراء جديدا بالنسبة له، قديما قدم الدعوة الاسلامية ذاتها (ان الدعوة لكي تبلغ غايتها ـ اي في الفترة المكية الثانية ـ كانت ترجع الى قصص او اساطير معروفة في الجزيرة العربية)[١٣] ويمثل لذلك بقصود هود، وصالح، وموسى، وابراهيم، ونوح وغيرهم. ثم يذكر بعد ذلك ان بعض هذا القصص مأخوذ من التوراة، اما مع القصص التوراتية فلم يكن من التوازي بد..[١٤].

وسؤالنا للمستشرق: اين تلك الاساطير ـ تحديدا ـ في القرآن؟ قصص السابقين من الرسل وأممهم ليس بقين من الاساطير، وانما كما يعرف المؤلف انباء عن ذلك الغيب الضارب في التاريخ ليواسي بها النبي ﷺ ولعلهم يتضرعون.

وما كان قومه ﷺ يعرفون هذه الانباء على حقيقتها، فقد قال الله لهم في سورة هود المكية: ﴿**تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها انت ولاقومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين**﴾[١٥].

واذا كان هذا تعقيب الله على قصة نوح، التي ذكرت لاهل مكة فان التعقيب مشابه لقصة آل عمران، التي ذكرت في السورة المسماة بالاسم ذاته لاهل المدينة: ﴿**ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون**﴾[١٦].

فأين الاساطير ـ اذن ـ ايها المستشرق؟!

---

(١٣)، (١٤) القرآن: نزوله، تدوينه، ٥٥، ٥٦.

(١٥) سورة هود: ٤٩.

(١٦) سورة آل عمران: ٤٤.

لا اجابة، بل صمت كصمت القبور!!

اما ان قصص الانبياء مع اقوامهم قد ذكر في التوراة فهذا امر يشهد للاسلام، لاضده، لانه يدل على ان مصدر هذا الدين واحد، وان الذي انزل التوراة والانجيل هو هو منزل القرآن!!

فأي عجب في هذا؟!

امـا ان يدعي بلاشـير ان رسـول الله ﷺ قد اخـذ القصص من التوراة، واضفى على الرواية ميزة عربية، بسياقها المكثف وباهتمامها بالايحاء اكثر من اهتمامها بالوصف، اما ان يدعي هذا دون دليل او حجة فهو الاسطورة والخرافة بعينها!!

ويختم المؤلف فصله بقومية الرسالة، فقد لاحظ ورود الخطاب بقوله تعالى: ﴿**يأأيها الناس**﴾ كثيرا في سور الفترة الثالثة ويؤولها بأن (الوحي لم يعد موجها الى المكيين فقط، بل ايضا الى الذين لم يرد بعد التفكير في هدايتهم، الى المدنيين اولا، ومن ثم الى عالم البدو)[١٧].

فالغاية ـ اذن ـ ان الوحي موجه الى اهل الصحراء، وهذا مايردده الافاكون قديما وحديثا، فضيق أفقهم يضيِّق نطاق وحي السماء.

ولقد خاطب الوحي رسول الله ﷺ في مستهل آيات القرآن ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ صدر سورة العلق.

﴿**يأأيهـا المـدثر قم فانذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولاتمنن تستكثر. ولربك فاصبر**﴾ صدر سورة المدثر.

ثم خاطبه ليبلغ وينذر عشيرته ﴿**وأنذر عشيرتك الاقربين**﴾ سورة الشعراء المكية ٢١٤.

ثم توجه الخطاب للناس جميعا: ﴿**قل يأأيها الناس اني رسول الله**

---

(١٧) القرآن: نزوله، تدوينه: ٦٠.

اليكم جميعا﴾ سورة الاعراف المكية من الآية ١٥٨ .

﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ صدر سورة الفرقان المكية .

﴿وما ارسلناك الا رحمة للعالمين﴾ سورة الانبياء المكية ١٠٧ .

﴿وما ارسلناك الاكافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ سورة سبأ المكية من الآية ٢٨ .

﴿ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا﴾ سورة يس المكية من الآية ٦٩ ، ٧٠ .

وجاء القرآن في الفترة المدنية ليؤكد عالمية الدعوة ، وانها دعوة لاتتعلق بالعرب وحدهم ، ولابجنس دون جنس ، او قوم دون قوم ، وانما هي لمن «كان حيا» كما جاء في سورة يس .

ففي سورة البقرة : **﴿ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾** من الآية ٢١ .

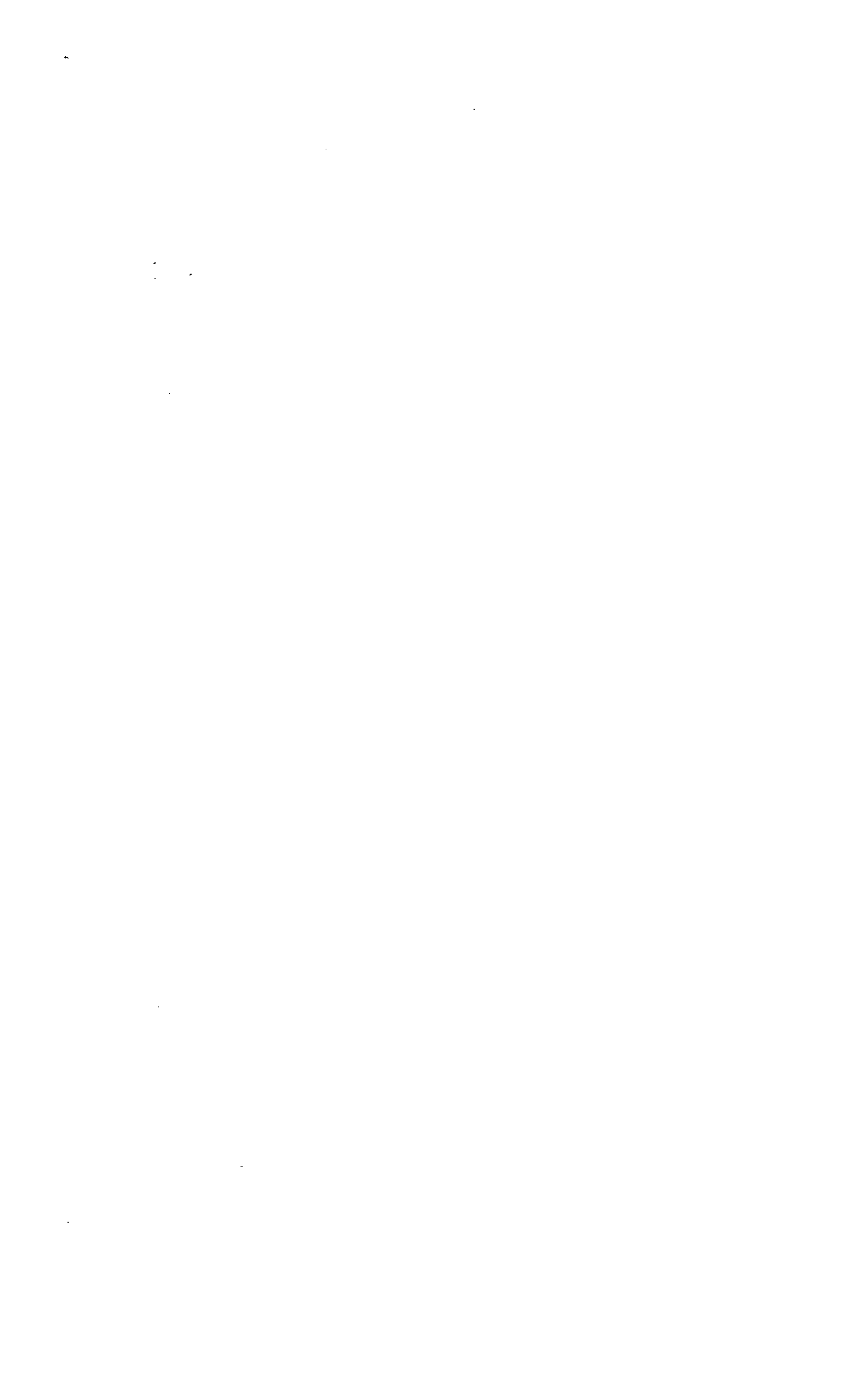
وفي صدر سورة النساء : **﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾** .

وهكذا نرى عالمية الدعوة وشمولها للزمان ، والمكان ، والبشر جميعا ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعث ﷺ الى الناس كافة ، كما جاء في الحديث المعروف .

فأين هذا التخصيص والتضييق الذي يرمي اليه ذلك المستشرق؟!



الفصل الثالث
رسالة القرآن في المدينة



رسالة القرآن في المدينة

لايؤمن المستشرقـون بنبوة محمد ﷺ، ولابرسالته الخاتمة، ومن ثم رأينا المستشرق بلاشير في هذا الفصل يصور امتداد الاسلام الى المدينة بأنه امتداد للزعامة، فكرر لفظ «زعيم» اكثر من مرة[1]، وينسب الى سكان المدينة وسرعة اهتدائهم السبب في تغير العمل الموكل الى محمد ﷺ (لقد اخذ يشعر دون ان يفقد شيئا من بساطته انه اصبح زعيم أمة تحكم باسم الله)[2].

ولعل هذه الفكرة هي التي اوحت الى بعض مؤلفينا ــ غفر الله لهم ــ ان يطلقوا عليه صفة العبقرية، او انه رسول الحرية او محرر العبيد[3] او غير ذلك من الالقاب التي تدل على البشرية لاعلى النبوة.

لكن الحق يجد طريقه ــ احيانا ــ بين كلماته، فها هوذا في موضع آخر يقول: (ففي جميع هذه الاحداث يتكلل الدور الذي يقوم به محمد ﷺ بهيبة لاترد فقط الى عبقرية الرجل، «اي الى الفكرة الاولى، التي اكدها من قبــل» بل الى ان الله نفسه يوجهه، ويدعمه، ويوحي اليه، وان للتلميحــات الخــاصة بصلح الحديبية اهمية من هذا القبيل «الفتح: ١٠، ٢٠» . .)[4] وهو يشير الى قوله تعالى: ﴿ان الذين يبايعونك انما

---

(١) انظر صفحات ٦٦، ٧٠، ٨٥، ٨٦ من كتابه: القرآن: نزوله، تدوينه.

(٢) السابق: ٦٦.

(٣) الاول للعقاد، والثاني لعبد الرحمن الشرقاوي، وقد اصدر الشيخ محمد ابوزهرة رحمه الله تعالى مع غيره بيانا خاصا بكتاب الشرقاوي يؤكد فيه سوء قصده، وفكره، حتى انه ليضع قوله تعالى: ﴿انما انا بشر مثلكم﴾ في صدر الغلاف ويترك بقية الآية وهي: ﴿يوحى إليَّ﴾ «من اواخر سورة الكهف»، وقد قرأت في بعض مقالات الشرقاوي التي كان ينشرها الاهرام قبل وفاته ان له صلة ببلاشير صديق عميد الادب العربي طه حسين!!

(٤) القرآن: نزوله، تدوينه: ٨٢.

يبايعون الله يد الله فوق ايديهم﴾ الخ ، والى قوله سبحانه : **﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما﴾** .

وفي الفترة المدنية يجد المؤلف نفسه امام نصوص من القرآن تتناول التشريع في كل مجال: في الحياة السياسية والمسائل الديبلوماسية، والنزاع المسلح ، وعلاقات الجوار مع اليهود، والطوائف المسيحية، والنفاق والمنافقين، والبيت النبوي ، والحياة الاجتماعية للمؤمنين، وعلاقاتهم بغيرهم ، وغير ذلك من الموضوعات والتوجيهات التي احتاج اليها المجتمع المسلم الناشيء ، كالحديث عن العقيدة وما يوطد دعائمها كقصص الانبياء وهذه الامثال وغير ذلك .

يقول المؤلف : (ولعله من الفائض وغير الضروري ان نلح على الارتباط القائم بين تاريخ الأمة المدنية وبين المنزلات التي تلقاها محمد في المدينة ، فانه كان في جميع الظروف يتلقى من السماء التوجيهات التي تمكنه من مجابهة الصعوبات ايا كان نوعها، فيعمل على تلافيها او حلها) .

ويقول في موضع آخر: (ان هذا الوحي ينظم كل تصرفات محمد «ﷺ» .)[٥] .

فلم لم تؤمن ان كان هذا صادرا من عقلك وقلبك معا؟!

او على الاقل: لماذا حصرت الشريعة ــ من قبل ــ في الجهاد والتحريم؟![٦] .

وفي ثنايا عرضه لبعض الموضوعات السابقة نجد الجحود والنكران

---

(٥) السابق : ٦٨ .

(٦) انظر: صفحة ٢٣ ــ ٢٤ من هذا الجزء.

لهذا الكلام الاخير، وانه لامانع لديه ولدى امثاله ان يرضوا الاتباع بشيء ما، او قول ما يسطروه، وسرعان ما يهيلون التراب على الحق، ظانين بالمؤمنين والعلماء ظن السوء عليهم دائرة السوء.

* * * *

وفي تناوله لموضوعات سورة النور يرى انها (تعالج بالتتابع اربعة موضوعات تتعلق اما بالزنا، وما بروابط اللياقة بين الجنسين، ثم يأتي بيانان: عن النور المنبثق عن الله، وقدرة الله الخالقة «الآيات: ٣٤ ــ ٥٦» لاصلة لهما بما سبق)[٧].

وعدم وجود صلة بين النور المنبثق عن الله، وقدرة الله الخالقة وبين ماسبق من النهي عن الزنا وسد الذرائع اليه، والامر بالاستئذان داخل البيوت وخارجها، وتعداد آيات الله في الكون هو في عقل المؤلف فقط، لكن الصلة موجودة، ونيرة لمن طلب النور مخلصا.

فالممتنع عن الزنا ولايطرق وسائله ابتغاء وجه ربه الاعلى هو مرتشف من نور الله الاسنى، مصدر الهدى والتقى، والعفاف والغنى، هذا النور الذي يظهر لكل ذي عينين (في كل آية من آيات الكون، في الطير وهو يسبح في الهواء، وفي السحاب حين يتكون في السماء، وفي تقلب الليل والنهار، وفي تنوع هذا الخلق العجيب)[٨] فأينما وجهت نظرك وبصرك فثم نور الله!! وقدرة الله!!

فكيف يزعم هذا المستشرق انه لاصلة بين هذا وذاك؟!

---

(٧) السابق: ٦٩.
(٨) تفسير سورة النور للدكتور اسماعيل سالم عبد العال: ٨ الطبعة الاولى طبعة دار نعمة الله ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

يرى المؤلف ان السبب في اكتساب الوحي قيمة الزامية متزايدة على الدوام يرجع الى شخصية محمد «ﷺ» التي بدأت تهيمن بنفوذ مزدوج: نفوذ النبي، ونفوذ الزعيم الثيوقراطي «اي الذي يحكم باسم الله» تشهد السور على ذلك بكثرة عبارة «اطيعوا الله ونبيه»[٩].

ونسارع الى تصحيح هذا الخطأ فليس في القرآن اطيعوا الله ونبيه، وانما فيه ﴿**واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون**﴾[١٠] وقوله سبحانه: ﴿**ياأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم**﴾[١١] وأمثال ذلك في القرآن[١٢].

واذا كنا نوافق المؤلف على الشطر الاول من السبب وهو نفوذ النبي ﷺ باعتبار ان النبوة والرسالة هي الاصل في تزايد قيمة الوحي، وتوطيد دعائمه، بفضل الله ورحمته، فانا نسقط الشطر الثاني، وهو الزعامة الثيوقراطية من حسابنا، فذاك امر له مفهوم خاص عند الاوروبيين اذ حكمت الكنيسة به واذاقت الناس سوء العذاب، تحت سطوته، وهو مفهوم لاتنسحب تبعيته الى الاسلام.

وطاعة رسول الله ﷺ وامتثال امره فريضة مفروضة من الله ذاته، لانه ﷺ مبلغ عن ربه ومبين لكتابه قال تعالى: ﴿**وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون**﴾[١٣].

---

(٩) القرآن: نزوله، تدوينه: ٧٠.
(١٠) سورة آل عمران: جزء من الآية ١٣٢.
(١١) سورة النساء: جزء من الآية ٥٩.
(١٢) انظر الآيات التي تتعلق بطاعة الله ورسوله مجموعة في: المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم: لمحمد فريد وجدي: ٤٣٠ مادة طيع، طبعة دار دار الشعب بالقاهرة.
(١٣) سورة النحل: ٦٤.

بل ان اتباعه والانقياد اليه شرط لمحبة الله ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[14] [15].

* * * *

ويصف المؤلف الآيات القرآنية في المدينة بأنها تدل على اتمام تطور ابتدأ منذ نهاية التبشير في مكة ثم يقول: (وسواء أكان من ناحية الاسلوب، ام من ناحية المواضيع المعالجة، فان المنزلات المتلقاة في المدينة، تشهد على العموم، اتصالا دائما وانسجاما دائبا، مع متطلبات دعوة غير منفصلة عن الواقع)[16].

ولعلك تجد في هذا الفصل ـ اكثر من غيره ـ ثناء عاطرا على القرآن واسلوبه، وفي اكثر من موضع، كما انك تجد ـ ايضا ـ ردّة عن هذا الحق، اذ يصف كلام الله بأنه من صياغة محمد «ﷺ».

وفي حديثه عن الآيات التي تناولت بني اسرائيل يعرض لكثير من القضايا التي تضمنتها مشيرا الى ارقامها، مبينا تلك الوقائع والاحداث، في ايجاز شديد، دون تعليق عليه، لكن سرعان مايعود الى سيرته الاولى، وينقلب على عقبيه فيقول: (فما ان ترك محمد «ﷺ» الكلام عن اسرائيل «وكأن الكلام كلامه، لا كلام رب العالمين» حتى يسعى الى تحسين المفهوم العربي «هكذا!! وكأن الاسلام رسالة للعرب فقط» للابراهيمية. فالقرآن يلح على دور هذا البطرك التوراتي في تأسيس عبادة الكعبة في الماضي البعيد «البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٧»، وقد

---

(١٤) سورة آل عمران: ١٣.

(١٥) وللتوسع في هذه المسألة يراجع كتابنا: دراسات في علوم الحديث فصل: «حجية السنة ومنزلتها التشريعية».

(١٦) القرآن: نزوله، تدوينه: ٧٠، ٧١.

حلت مكة منذ ذلك الحين محل اورشليم «القدس» لتكون قبلة المصلين في صلاتهم المفروضة.

وان المباغتة في الايحاء الى نبي المسلمين عن ذلك تظهر مقدار ماقصده بهذا الانقلاب من تأثير على النفوس «البقرة: **١٤٢ ــ ١٥٢**»[١٧]

* * * *

احتفى القرآن بنبي الله ابراهيم احتفاء كبيرا، ووصفه بأنه كان أمة قانتا لله حنيفا «مائلا عن الجور والالحاد» ولم يك من المشركين، شاكرا لانعمه، اجتباه، وهداه الى صراط مستقيم، ﴿**وآتيناه في الدنيا حسنة، وانه في الآخرة لمن الصالحين. ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين**﴾ «النحل: **١٢٢ ــ ١٢٣**».

يأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يتبع ملة ابراهيم ابي الانبياء حنيفا، وابراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانيا كما نطقت الآيات ﴿**ماكان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين**﴾[١٨].

بل ان هذا المطلب وجه للمسلمين جميعا حين دعاهم اليهود والنصارى الى دينهم: ﴿**وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين**﴾[١٩].

ولقد اخبرنا القرآن ــوهو وحي اللهــ ان ابراهيم واسماعيل ــولدهــ

---

(١٧) السابق: ٧٥، ٧٦.

(١٨) سورة آل عمران: ٦٧.

(١٩) سورة البقرة: ١٢٥.

قد رفعا القواعد من البيت الحرام[20] ﴿**واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم**﴾[21].

فاذا كان هذا وحي السماء فكيف يزعم بلاشير ان محمدا ﷺ سعى ــأي من عند نفسهــ الى تحسين العلاقات مع اليهود بانتمائه الى الابراهيمية؟!

(ليس بعد الوحي مجال للقول، لكن المستشرق اليهودي مرجليوت زعم منذ عام **١٩٢٤**م ان محمدا «ﷺ» الصق المسلمين بابراهيم. ولم يأت المؤلف بجديد حين تحدث عن هذا نفسه)[22].

* * * *

وبمثل قوله عن اليهود، قال عن النصارى: (والاكيد ان لهجة التبشير لم تتغير وتنتهي الى شجب المسيحية الا بعد ماشعر محمد بأولى مقاومات العالم البيزنطي، وخاصة يوم سقوط مؤتة)[23].

وقد كان تعقيبه هذا على قوله تعالى في سورة المائدة «**٨٢ ــ ٨٣**»: ﴿**لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا. ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون**﴾الخ.

ويدل كلام بلاشير هذا على كفره بنبوة محمد ﷺ فهو يتصور ان

---

(٢٠)، (٢١) جاء في تعليق الشيخ الزغبي على كتاب بلاشير هامش ص/٧٦ ان ابراهيم وولده اسماعيل «مؤسسان» بيت مكة، والصواب: يرفعان القواعد من البيت فان تأسيس البيت كان قبل ابراهيم، كما قال تعالى: ﴿**ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا**﴾ سورة آل عمران: من الآية ٩٦.

(٢٢) القرآن: نزوله، تدوينه، هامش ص/٧٦.

(٢٣) السابق: ٧٨.

الافعال الصادرة منه افعال زعيم، او تكتيك سياسي ماكر، غيَّر لهجته نحو العقيدة المسيحية حين شعر بقوتها، وبخاصة في معركة مؤتة.

ويدل كلامه من جهة اخرى، انه لم يفقه الآيات التي استشهد بها، ولا السياق الذي جاء فيها، ولا النصوص القرآنية التي تعرضت للعقيدة المسيحية وموقف الاسلام منها.

هذه الآيات التي جاءت في النصاري ليست عامة فيهم فان القرآن قد حدد هذه «الفئة»، وبين انهم «جماعة» من النصارى **﴿وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾**.

فهم جماعة من النصارى لايستكبرون عن الحق.

واذا سمعوا القرآن فاضت عينهم من الدمع مما عرفوا من الحق ثم يعلنون ايمانهم بمحمد ﷺ قائلين: «ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين».

فهل النصارى كلهم كذلك؟

وهل المستشرق بلاشير الذي ترجم القرآن وعرفه كذلك؟.

ثم ان الآية لم تقل: ولتجدن اقربهم مودة «النصارى» في مقابل «اليهود والذين اشركوا» اشد الناس عداوة للذين آمنوا، بل ان الآية اوردت «من» التبعيضية في سياق ينطق بأنهم جماعة من النصارى، وليس كل النصارى «ذلك بأن منهم»، وهذه الفئة المخصوصة، قد حددتها روايات سبقت في سبب نزول الآية.

فقد ذهب بعض المفسرين الى ان هذه الآية، نزلت في النجاشي واصحابه، حين قرأ عليهم جعفر بن ابي طالب سورة «مريم».

وذهب ابن اسحاق الى انها نزلت في عشرين رجلا من النصارى، قدموا الى رسول الله ﷺ وهو بمكة فكلموه، وسألوه، فلما فرغوا من

مسألتهم، دعاهم رسول الله ﷺ الى الاسلام، وتلا عليهم القرآن، ففاضت اعينهم من الدمع، وقالوا قولتهم الصادقة: «ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين».

وذكر مجاهد ان هذه الآية نزلت في الذين جاءوا مع جعفر بن ابي طالب مسلمين من الحبشة وهم سبعون رجلا اثنتان وستون من الحبشة وثمانية من اهل الشام «منهم بحيري الراهب».

وهناك روايات اخرى تدل على انهم جماعة آمنت برسول الله ﷺ وما انزل اليه[٢٤].

ثم ان بقية الآيات تدل على كفر من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ اذ قالت الآيات تعقيبا على قول هذه الجماعة: ﴿**فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب الجحيم**﴾ «سورة المائدة ٨٥ — ٨٦».

وهذا هو النص الذي اغفله بلاشير او تغافل عنه.

امـا الآيات السابقة لهذه الآية التي استشهد بها بلاشير فانها تدل ــ ايضاــ على التمايز التام بين من فاضت اعينهم من الدمع اذا سمعوا آيات الله تتلى وآمنوا، وبين من اصروا على الكفر.

﴿**لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** «هم مشركون ــ اذن ــ بشهادة المسيح عليه السلام» **ومأواه النار**

(٢٤) انظر: تفسير القرطبي: المجلد الثالث: صفحة ٢٢٥٢ ــ ٢٢٥٤ طبعة دار الشعب ــ القاهرة، وروح المعاني للآلوسي: المجلد السابع ٣ ــ ٤ طبعة دار احياء التراث بيروت، وفي ظلال القرآن: للشيخ سيد قطب: ٢/ ٩٦٤ ــ ٩٦٦.

وما للظالمين من انصار. لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد﴾ «المائدة: ٧٢ ــ ٧٣».

بل ان المتتبع لنصوص القرآن والواقع التاريخي منذ معركة اليرموك ومرورا بالحروب الصليبية، ومساندة انجلترا، ثم امريكا لليهودية العالمية في فلسطين ليرى هذه العدواة ــ لا المودة ــ بادية منهم وماتخفي صدورهم اكبر[٢٥].

وصدق الله القائل: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**[٢٦].

* * * *

لقد بلغت اساءة أدب بلاشير مع رسول الله ﷺ انه حين تحدث عن بيت النبوة وزوجاته ﷺ يسمي زوجاته خليلات!! وهذا نص عبارته: (حرم على محمد «ﷺ» ان يكثر من نسائه أو خليلاته الاحزاب ٥٢)[٢٧].

فلاول مرة ــ كما يقول الشيخ الزغبي[٢٨] ــ نسمع شخصا هو بلاشير يطلق على زوجات رسول الله ﷺ خليلات!! بل ان استخدام لفظ «أو»

---

(٢٥) للتوسع في هذه المسألة، يراجع: في ظلال القرآن: الموضع السابق نفسه، وقد ذهب ابن تيمية ــ من قبل ــ الى انهم فئة شهدت لرسول الله ﷺ بالرسالة، ونقل عن ابن عباس وغيره انه فسر قوله تعالى: **﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾** فقال: (مع محمد ﷺ وأمته. لكنه عمم الرحمة والمودة في النصارى، لانه ليس في دينهم عداوة ولا بغض لاعداء الله المحاربين لله، ورسوله، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين بجميع الكتب والرسل، ثم قال: وليس في هذا مدح للنصارى بالايمان بالله، ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب، وانما فيه انهم اقرب مودة. وقوله تعالى: **﴿ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون﴾** اي بسبب هؤلاء، وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة مايصيرهم بذلك خيرا من المشركين، واقرب مودة من اليهود والمشركين) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٢/٥٦، ٥٧ طبعة المدني.

(٢٦) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٢٧) صفحة ٨٣ من كتاب: القرآن: نزوله، وتدوينه.

(٢٨) هامش صفحة ٨٤ من الكتاب السابق.

فيه افتراء على القرآن، وفحش في القول يتناسب مع سوء أدب قائله!!

فهل هذا جهل منه باللغة العربية، وهو الذي تلقى تعليمه الثانوي في الدار البيضاء بالمغرب، وتخرج في كلية الآداب بالجزائر، وانتدب مديرا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط؟؟؟!!!

اهكذا يتحدث اتباع عيسى عليه السلام عن محمد ﷺ؟!

ان دين محمد ﷺ وسيرته العطرة ليس فيهما ما يخجل او يستحى منه اتباعه!!!

ليس في ديننا «وحي يتلى» بأن لوطا زنى بابنتيه بعدما سقتاه الخمر وانجبتا من الزنا من ابيهما مواب وعمون!!

ليس في ديننا «وحي يتلى» بأن داود وضع قائده اوربا الحثي في المهالك ليتزوج امرأته بعدما زنى بها!!

ليس في ديننا «وحي يتلى» بأن سليمان كان له الف زوجة سبعمائة من الاحرار، وثلاثمائة من الاماء، وبعضهن قد أملن قلبه عن التوحيد الى الوثنية!!

فهذا ــ وأمثاله ــ مما حرفتموه بأيديكم ونسبتموه الى ربكم هو الذي يستحى منه!!

ولعل هذه الكلمة الخبيثة ــ وأمثالها ــ هي التي أوحت الى المرتد سلمان رشدي بقصته الداعرة «آيات شيطانية»!!

﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾[29].

ويتناول ذاك المستشرق قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش بعد ان طلقها زيد بن حارثة، الذي تبناه رسول الله ﷺ، وقد كان العرب يحرمون ــ دون سلطان من الله ــ مثل هذا الزواج. وقد

---

(٢٩) سورة الكهف من الآية ٥.

انتـدب رسول الله ﷺ لازالة هذا الموروث الجاهلي، فزوجه الله من زينب بنت جحش مطلقـة زيد حتى لايكـون هنـاك عنت ومشقـة للمسلمين اذا أرادوا الزواج من زوجات ادعيائهم بعد الطلاق والعدة.

﴿فلما قضى زيـد منها وطرا زوجناكها لكي لايكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا﴾[30].

لكن المستشرقين ــ كدأبهم يتشبثون ببعض الروايات الواهية التي تفـتري على الرسول ﷺ بأنه اعجب بزينب بنت عمته عاتكة، وهو الـذي زوجها!! فتحكي وهما مريضا لا اصل له، بتلك القصة التي ذكرها غير المحققين من المفسرين والمؤلفين، والذين يجمعون في كتبهم بين الغث والسمين، والصحيح والعليل.

هذا ابن كثير الحافظ المفسر المحدث يقول في تفسيره عند هذه الآية **﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾**[31]: (ذكر ابن جرير ههنا آثار عن بعض السلف رضي الله عنهم احببنـا ان نضرب عنهـا صفحا لعدم صحتها فلا نوردها)[32].

فلماذا يتمسـك المستشرقـون بروايات اسرائيلية موضـوعة انتقدها حفاظ الحديث وعلماء الجرح والتعديل؟!

والاجابة: ان واضع القصة، ومرددها، كلاهما يصوبان السهام من خندق واحد الى الاسلام ورسوله ﷺ **﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾**[33].

---

(٣٠) سورة الاحزاب: من الآية ٣٧. (٣١) سورة الاحزاب: من الآية ٣٧.

(٣٢) تفسير ابن كثير: ٣/٤٩١ وانظر كتابنا: ابن كثير ومنهجه في التفسير: ٣١٧ ــ ٣١٨، الطبعة الاولى سنة ١٩٨٤م. (٣٣) سورة الصف: من الآية ٨.

الفصل الرابع
الواقعة القرآنية وعلوم القرآن



الواقعة القرآنية وعلوم القرآن

هذا فصل جيد في مجموعه، فقد اثنى فيه المؤلف على القرآن، وبيَّن أثره في نشأة كثير من العلوم المتصلة به، وفي التطورات الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، والآخلاقية في المجتمع الاسلامي، وكيف استمدت الحياة الاسلامية روحها وحضارتها بل وتكيف واقعها ونزعاتها الخاصة من القرآن الكريم.

هذا الفصل ــ باستثناء بعض المواضع القليلة فيه ــ قد كتب بروح تخالف ماكتب من قبل.

وقبل ان نسوق بعض الامثلة على ذلك نحدد المراد بـ«الواقعة القرآنية» التي جعلها المؤلف عنوانا لهذا الفصل.

يقول المؤلف[1]: (لقد فجرت المنزلات التي بلغها محمد «ﷺ» وغذت ثلاثة قرون من الزمن انقلابات سياسية، واجتماعية وتطورات فكرية، واخلاقية، ونظرا علميا، ودينيا، تسمى كلها من باب التسهيل بـ«الواقعة القرآنية»...).

فهذا التأثير الشامل في مناحي الحياة كلها يطلق عليه المؤلف الواقعة القرآنية.

ففي تأثير القرآن على المجتمع وبناء الحضارة الاسلامية والتمدن الاسلامي يقول[2]: (ان هذه الواقعة قد كيفت ذلك التمدن، وطبعت فيه بعض النزعات الخاصة، وصاغت له اطارا كانت مرونته تجعل جميع التكيفات والامكانات متناسبة).

لقد تناول المؤلف بشيء من التفصيل التاريخي، الاتصال الوثيق بين

---

(١)، (٢) القرآن: نزوله، تدوينه: ٩٠ و٩١.

الواقعة القرآنية، وبين نشأة قواعد الصرف، والنحو، والمعاجم اللغوية، والقراءات، وعلم البيان، والاعجاز وغير ذلك.

لكنه في حديثه عن القراءات زعم ان (كل قاريء مهما كان إرثه اللغوي قريبا من معيار لفظي قد تحدد بشيء من الاتفاق، لم يستطع التخلي عن ادخال خصوصيات لفظية في تلاوته)[٣].

كأن القاريء هو الذي يضيف من عنده، دون تلق بسند صحيح الى رسول الله ﷺ خصوصيات لغوية لتنشيء قراءة تنسب اليه!!

هذا كلام لا اصل له، ولا دليل عليه، وقد سبق ان بيَّنا تهافته عند مناقشتنا لارثر جفري من قبل!!

* * * *

اما حديثه عن الاعجاز القرآني، فقد كان شيئا عجيبا منه، لقد سبق أن وصف بلاشير القرآن بأنه أساطير الاولين، وأن قصصه مأخوذة عن التوراة، أو عن القصص القومي، وأن محمدا تلقى هذا القرآن عن راهب خارج عن العقيدة القويمة، وان المنزلات التي قالها محمد نقلها عن غيره، وأنه كتاب بلبل الافكار في الشرق.. الخ ما سبق ان فندناه من قبل.

اسمعه يقول في هذا الفصل، وهو يتحدث عن اتهام العرب المشركين للقرآن بأنه شعر أو كهانة: (كان الاتهام الجسيم على الصعيد اللاهوتي بالاجمال اعترافا بما لهذا النثر الموزون المقفى من تأثير عجيب، ولقد نشأ من هذا النثر انفعال اجمالي أثَّر حتى على الأعداء أنفسهم(!!).

ان القيمة الادبية للرسالة التي تبلغها العرب عن محمد «ﷺ» قد

---

(٣) السابق: ٩٩.

تجلت حالا من غير ان يخالطها اي شيء دنيوي كأجمل أثر ادبي كان يمكن تصوره. ولايجب ابدا، ان يغرب عن بالنا، هذا الحدث الذي يتصل بها توحيه الشريعة الجديدة، من الاجلال عندما نحكم ميزة القرآن الجمالية، ثم ان لهذه الميزة تأثيرا حتى على السامع الذي لاينطق بالضاد)!![4]

وفي موضع آخر يقول: (ان القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، انه ايضا ـ ويمكنه ان يكون قبل أي شيء آخر ـ تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الانسانية وبجّلته من التحف)[5]!!

ثم يختم المؤلف هذا الفصل ببيان ان الواقعة القرآنية اثارت وغذت نشاطات علمية عديدة، وفاعلية الواقعة القرآنية هنا ليست فاعلية عنصر منبه فقط بل فاعلية عنصر مبدع، تتوطد قوته بنوعيته الذاتية.

قال: (وانما نقصد بذلك هذه العلوم الفريدة خاصة في طرائقها ونتائجها وقد سميناها علوم القرآن، ويأتي في طليعة هذه العلوم، مايمكن ان نسميه ملكها وهو علم التفسير)[6].

وانك لتسأل ما دلالة هذا التناقض العجيب الصادر من شخص واحد، في مؤلف واحد، عن اخلد كتاب في الوجود القرآن؟

مؤلف من اساطين المستشرقين يصف القرآن بأنه اساطير وقصص نقلها محمد ﷺ، ثم يصف اعجازه بأنه امتد حتى ان الانفعال الجمالي الصادر منه أثر حتى على الاعداء أنفسهم!! حتى على السامع الذي لاينطق الضاد!!

---

(٤) السابق: ١٠١.
(٥) السابق: ١٠٢.
(٦) السابق: ١٠٥.

هي ومضة ــعلى كل حالــ كتلك الومضة التي اشرقت لحظة في نفس الوليد بن المغيرة ثم انطفأت وخبت.

لقد قال الوليد لقومه يصف القرآن: (فوالله مامنكم رجل اعلم بالاشعار مني، ولا اعلم برجزه مني، ولا بقصيده، ولابأشعار الجن، والله مايشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله ان لقوله لحلاوة، وانه ليحطم ماتحته، وانه ليعلو وما يعلى..)[7] لكن الوليد مالبث ان ﴿**ادبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر**﴾[8].

وهكذا كان بلاشير الذي كان موظفا كبيرا في وزارة الخارجية الفرنسية، باعتباره خبيرا في شؤون العرب، والمسلمين، لاينسى وظيفته ومهمته ولاينسى عقيدته.

فاذا هدته دراسته الى ان يجد في القرآن هذا الاثر العظيم الذي وصفه، حتى على السامع الذي لاينطق بالضاد ويجد فيه هذا التأثير الشامل المحيط بالحياة كلها، فكرية، وسياسية، واجتماعية، وتربوية، وعمرانية حتى تغلغل في كيان المجتمع كله على مدى ثلاثة قرون على حد قولهــ اقول: اذا هدته دراسته الى هذا فانها هداية عقلية خاطفة لم تجر وراءها قلبه، فينفتح لهذا النور الاسنى كما تفتح له غيره من المستشرقين، امثال: ليوبلدفايس[9]، وموريس بوكاي[10]، وروجيه

---

(٧) تفسير ابن جرير الطبري: ٢٩/٩٨ طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

(٨) سورة المدثر: ٢٣ ــ ٢٥.

(٩) سمى نفسه «محمد اسد» ومن كتبه الجيدة «الاسلام على مفترق الطرق» وقد طبع اكثر من مرة.

(١٠) طبيب فرنسي مشهور من اعظم كتبه «القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم». وقد ترجمته ونشرته دار المعارف بمصر، وله ايضا «ما اصل الانسان؟ اجابات العلم والكتب المقدسة» ترجمه ونشره مكتب التربية العربي لدول الخليج سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

جارودي[11]، ومريم جميلة[12] وغيرهم.

ان بلاشير -وأمثاله- قد تربى صغيرا على سوء فهم الاسلام والقرآن، شأن معظم الناس في الغرب كما يقول موريس بوكاي نفسه[13]، وقد تسلطت عليه هذه التربية، فعادى القرآن والاسلام تحت شعار الدراسة المجردة، والبحث العلمي النزيه!!

فاذا توصل بلاشير -أو غيره من المستشرقين- الى شيء من الحق في ديننا نتيجة دراسته فانه كاذب[14]، وان كان قد وافق الحق في هذه الجزئية. فلا يغرنك ثناؤه، او ثناء غيره، ممن لم يؤمن بكتاب الله كله الوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ لانه ايمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، كنهج اخوانهم من قبل اذ تواصوا فقال بعضهم لبعض ﴿**آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون**﴾[15].

---

(١١) اعلن اسلامه منذ سنوات، وقد تقلب في عدة مذاهب وكان ذا منصب كبير في الحزب الشيوعي الفرنسي وعرف بالدفاع عن حق الفلسطينيين في العودة الى ارضهم مما جلب عليه عداء اليهود.

(١٢) صحفية امريكية من اصل يهودي، من كتبها الجيدة «الاسلام في النظرية والتطبيق».

(١٣) ما اصل الانسان؟: ١٧٧ طبعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

(١٤) هو كاذب لانه يقول ما لايعتقده كما قال المنافقون. ﴿**نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون**﴾ صدر سورة المنافقين.

(١٥) سورة آل عمران، جزء من الآية ٧٢.



الفصل الخامس
التفسير القرآني اصوله واغراضه

التفسير القرآني اصوله واغراضه

يؤرخ بلاشير ــ في هذا الفصل ــ لتفسير القرآن، واضعا خطوطا عريضة لاتجاهات التفسير، مبينا في اجمال مقاصدها.

وحديثه في هذا الفصل، رصد تاريخي للتفسير والمفسرين، لكنه تأريخ عام يناسب فصلا في كتاب[١].

ولقد نشأ التفسير في عصر الرسول ﷺ اذ كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يسألونه عن (كلمة أو عن مقطع غامض من الوحي، وعن مغزى تحريم أو تحليل قرآني يتعلق بالعبادة، وعن تلميح في النص المقدس، او عقوبة يظن شخص انه مقصود بها)[٢].

ويجيب رسول الله ﷺ باعتباره المفسر والشارح للوحي الآلهي.

وبعد وفاته ﷺ تحمل كبار الصحابة هذه المهمة لانهم كانوا اقرب الناس ارتباطا بالوحي القرآني، وبمن نزل عليه ﷺ.

ويربط بلاشير بين نشأة التفسير وتعدد القراءات لكنه حسب فهمه الخاطيء لتعدد القراءات يزعم ان عدم ثبات الخط العربي، ونقصانه، وعدم ضبطه، هو احد الاسباب الاصيلة في نشأة التفسير، اذ كان الخط بمظهره الناقص يثير ويحدث الغموض في النص[٣].

فكل لهجة معينة تقرأ مايناسبها، ويتفق مع نظامها اللغوي، ومعلوم ــ كما قلنا من قبل ــ ان القراءات لم تكن نتيجة عدم ثبات الخط العربي ونقصانه، بل لابد لها كي تصح وتثبت ان تكون متصلة بالسند

---

(١) للتوسع في هذا المجال يراجع كتاب «التفسير والمفسرون» للشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى.

(٢) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٠٦.

(٣) انظر السابق: ١٠٧

الصحيح برسول الله ﷺ، وان تكون موافقة للعربية، وغير ذلك مما ذكره علماء القراءات. وليس هذا الغموض الذي يشير اليه المؤلف في النص القرآني، ناشئا عن عدم ثبات الخط وتأخر ضبطه، بل قد يكون سببه التركيز على بعض الالفاظ في بيئة دون اخرى، او الجهل بسبب النزول، او الناسخ والمنسوخ، او غير ذلك مما بسط في مظانه.

ويتحدث المؤلف عن متعصبي الشيعة الذين كانوا يزودون النص القرآني بشروحات تتعدى حرفية النص القرآني، معتمدين في ذلك على ان هناك زيادات، او انتقاصات فيه، من شأنها ان تحط من منزلة عليّ وآل بيته في الامة.

وهو كلام ساقط يردده المؤلف متصورا ان ينال شيئا من القرآن. لكنه يغلف مرماه فيضرب صفحا عن هذا الاتجاه لانه سياسي، ويبحث عن خطوط القوة التي تكوّن بموجبها التفسير الاسلامي في العراق ابتداءً من نهاية القرن الثامن للميلاد[٤].

ويصور المؤلف غوص المفسر المسلم في التحليل فيقول: (لايجب ان تفوت ابحاثه ومضة، ولا غامضة، ولا خاصية نحوية، او اسلوبية، حتى ان النعت الاكثر شيوعا لابد ان يكون له في نظره، مدلول ومرمى. ويكمن في الصيغ الاضمارية اسرار وتلويحات هي سبب مافي التعبير من الاعجاز.

ان معرفة لامثيل لها للمصحف، تمكننا من ان نكتشف فيه مقاطع تؤدي الى تفجير عظمة الحقائق المنزلة سواء أكانت هذه المقاطع متكاملة أو متعارضة)[٥].

---

(٤) انظر السابق: ١٠٩.
(٥) انظر السابق: ١٠٩ ــ ١١٠.

فانظر كيف يختم كلامه بوصفه للمقاطع القرآنية بأنها متكاملة او متعارضة!!

والقرآن لايناقض بعضه بعضا، ولاتعارض مقاطعه مقاطع اخرى، ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾(٦).

لكن هكذا يقول من لايؤمن بالله وكلماته!!

ويقسم بلاشير المفسرين بشكل عام الى فئتين:

الاولى: وهي تشكل الاكثرية الساحقة وصفهم بقوله: (وهم نفوس عاقلة، لابل نفوس تقية تحترم الاجماع المطلق والمرجع الحجة)(٧).

وهو يعني بذلك التفسير بالآثار المروية عن الصحابة، والتابعين أو عن اجماع من العلماء. واستشهد بما نسب الى رسول الله ﷺ: (**ان امتي لن تجتمع ابدا على ضلالة**).

ويبدو من النص عدم الدقة في الترجمة، او لعل المؤلف نفسه كتب المعنى دون الرجوع الى النص، فجاء التعبير عنه قلقا. وصوابه: (**لاتجتمع أمتي على ضلالة**) وقد صح من قول ابن مسعود حين خرج من الكوفة وسئل عن الفتن(٨).

اما الفئة الثانية: فيتميز اصحابها بقبولهم للتحليل وبحثهم مجددا في المسائل الكلامية والاخلاقية.

ووصف الفريقين بقوله: (على ان جميع هؤلاء العلماء او المفكرين يلتقون في اجلالهم المشترك للنص القرآني. فبالنسبة اليهم تستحيل اثارة أية مشكلة فيما يختص باعجاز الوحي، فضلا عن انه يمكننا

---

(٦) سورة النساء: من الآية ٨٢.

(٧) السابق: ١١٢.

(٨) ذكر ذلك ابن حجر في: التلخيص الحبير: ٣/١٤١ وبيّن ان الترمذي وأبا داود قد خرّجاه وفيه مقال.

القول، بأن انصار المرجع الحجة، يعترفون دون مقاومة، باجلاهم لما يعجز الوصف بينما تجتهد المدارس الفكرية دائما لزيادة التعمق في حكمة الرسالة القرآنية وعجائبها ويسيطر في الحاصل عند الجميع موقف الدفاع عن الدين)[٩].

وقد ذهب المؤلف ــتبعا للمستشرق سوفاجيهــ الى ان هناك رابطة منهجية بين الابحاث التي تُفضي الى التاريخ، وبين الابحاث التي تقصد اخراج الشريعة عن طريق الحديث. ولذلك لايستغرب ان كان اسماء المفسرين الاوائل هي نفسها اسماء كبار المحدثين الاوائل، كابن عباس وعروة بن الزبير، وعكرمة، ومجاهد، وكعب الاحبار، ووهب بن منبه[١٠].

ويعرج المؤلف على بعض المفسرين الذين حشدوا كتبهم بالقصص، الذي يتفق مع العوام، وميولهم الشعبية، مما هيأ للتأثيرات المسيحية واليهودية «وهو مانطلق عليه الاسرائيليات» ان تنمو، معتمدة في ذلك على كعب الاحبار، ووهب بن منبه الحبرين اليهوديين اللذين اسلما[١١].

ومن الكتب التي ظهرت فيما بعد واحتوت كثيرا من هذه الاخبار الملفقة ــعلى حد قولهــ الكتب التي اسندت الى اسماعيل السدي المتوفي سنة ٧٤٥م، والى مقاتل البلخي المتوفي سنة ٧٦٧م.

ويتناول المؤلف ــبشيء من التفصيلــ تفسير الطبري، ويتحدث عنه باعتباره من اعظم التفاسير التي ضمت (جميع معطيات التفسير التي

---

(٩) القرآن: نزوله، وتدوينه: ١١٢.

(١٠) انظر السابق: ١١٤، ١١٥.

(١١) انظر في ذلك: كتابنا: ابن كثير ومنهجه في التفسير: ٣١٩ ــ ٣٢١ مطبعة اسامة الطبعة الاولى ١٩٨٤م.

كانت رائجة على وحي محمد «ﷺ» آنذاك)[12]، وايضا فهو يمثل (اتجاه الاغلبية المطلقة في الاسلام) اي اتجاه مذهب «أهل السنة».

ثم يوضح طريقته في التفسير، مبينا ان مصنفه احتفظ بهذه الآثار على مر الاجيال، تلك الآثار التي حفظت الوحدة لأمة مهددة من الداخل بعقلانية بعض المدارس الكلامية او الفلسفية[13].

وقد تأثرت هذه المدارس الكلامية، او الفلسفية، بالفلسفة اليونانية عندما ترجمت المذاهب الفلسفية اليونانية، فاختلط نشاطها بأعمال الفلاسفة، وبخاصة هؤلاء الذين حاولوا التوفيق بين العقل المحض وبين العقائد الاسلامية، امثال ابن سينا وابن رشد.

ويضرب لهذه المدرسة نموذجا بالزمخشري، صاحب الكشاف، وان كان تفسيره يميل الى شيء من الاعتدال.

اما التفسير الرمزي الذي ينتهجه المتصوفون، فقد لاقى نقدا شديدا من اهل السنة لانهم (جردوا المصحف من محتواه العلمي، واللفظي، كما استبدلت المفاهيم والشروحات المألوفة بمعان مجازية[14]، تقوم على انماط من التفكير العرفاني والرمزي)[15].

ويعد الكاشي المتوفي سنة **٣٣٠**م من الذين ساروا على هذا النهج، فهو يفسر قوله تعالى في صدر سورة الاسراء ﴿**سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى**﴾ (بأن نزّهه عن اللواحق المادية «من المسجد الحرام» اي من مقام القلب المحرم على ان يطوف به مشرك القوى البدنية، ويرتكب فيه فواحشها، وخطاياها،

---

(١٢)، (١٣) القرآن عند نزوله، تدوينه: ١١٨، ١١٩.

(١٤) الباء تدخل على المتروك اذا استخدمنا فعل استبدل. فهو خطأ من المترجم.

(١٥) السابق: ١٢١.

ويحجبه غوى القوى الحيوانية . . «الى المسجد الاقصى» الذي هو مقام الروح الابعد من العالم الجسماني لشهود تجليات الذات)[16].

وهو تأويل رمزي، يأباه اهل السنة، لان التفسير الصحيح يقوم على فقه دلالات الالفاظ، كما كانت عند العرب، وكما سجلها علماء المعاجم، ويندرج تحتها، تلك القواعد البلاغية، التي استنبطها العلماء من كلام العرب ودواوين ادبهم، بحيث تجد الصلة قائمة بين ايماءات التراكيب اللغوية، وايحاءاتها، ومجازها، وبين المعنى الحقيقي الذي وضع له اللفظ اصلا.

وقد ادرك المؤلف ان هذا التفسير مرفوض رفضا قاطعا من اهل السنة فقال: (ولا يخفى علينا ان شجبا صاعقا لمثل هذا الانحلال في التفسير قد صدر عن العقيدة السنية)[17].

ويعود المؤلف فيتناول بعض النماذج للمفسرين الذين هم اقرب الى المدرسة الكلامية منهجا من مدرسة التفسير المأثور. ويمثل لهم بالفخر الرازي في «مفاتيح الغيب».

وتتميز بعض التفاسير بغلبة بعض الاتجاهات اللغوية، والنحوية، وعلم القراءات، كما نرى في «البحر المحيط» لابي حيان الغرناطي، وقد يكون التفسير اختصارا للتفسير بالمأثور مع بعض التعليقات الوجيزة كتفسير السيوطي «الدر المنثور».

ويصل المؤلف الى النصف الثاني، من القرن التاسع عشر الميلادي، الموافق للنصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، حيث كانت المحن التي واجهها العالم الاسلامي كثيرة، مما كان سببا في انبثاق «ثورة

---

(١٦) السابق: ١٢١ ـ ١٢٢.
(١٧) السابق: ١٢٢.

في مجال التفسير القرآني» ـ كما يقول المؤلف ـ تلك الثورة التي عملت على الدفاع الذاتي، في وجه النفوذ الاستعماري الغربي، واعادة القوة لبعض قيم الماضي، واكتشاف الدوافع الخليقة باستبدال النمط المتوارث عن العصور الوسطى للدفاع عن العقيدة[18].

ويشير بلاشير الى الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، باعتبارها حركة احياء الاصلاح الديني، والى الشيخ محمد عبده الذي وصفه بأنه اكفأ باعث لهذا الاصلاح.

وقد ذكر المؤلف شيئا من سيرة الشيخ، وتلميذه الشيخ رشيد رضا، ثم بين ان تفسيره للقرآن، كان احد ركائز الاصلاح الديني، الذي قام به، كما ان الاعتماد على القرآن والسنة هو الذي يمكن ان يمد الاسلام بالقوة لمجابهة الغرب على قدم المساواة. هذا المعنى الذي اكده ابن تيمية من قبل، كما يقول المؤلف نفسه[19].

ويلفت بلاشير النظر الى ان الشيخ محمد عبده في تفسيره (قد بدا من بعض النواحي مكملا لمذاهب المعتزلة، دون ان يأخذ بمبادئهم العقدية.. ولم يكن يتردد في اعطاء الافضلية للتأويل العقلي مثلا في كل مايتعلق بالتشبيه)[20].

ويصف بلاشير تفسير الشيخ طنطاوي جوهري المتوفي سنة ١٩٤٠م، بأنه تفسير توفيقي، حاول ان يجدد نوعية الدفاع عن الدين بتفسيره العلمي. لكنه اعتمد على تعميم علمي عجول وسط. وهي محاولة لم تبلغ هدفها بل تعدته من جراء اختلاف الطرائق التي استخدمها[21].

---

(١٨) السابق: بتصرف: ١٢٥.
(١٩) انظر السابق: ١٢٦.
(٢٠)، (٢١) المصدر السابق: ١٢٦، ١٢٧.

وينهي المؤلف هذا الفصل بحديثه عن اتجاه جديد في رأيه يمثله تفسير الشيخ احمد مصطفى المراغي[٢٢]، الذي يعتبره خلاصة عقدية، وفقهية واخلاقية، مبنية على الوحي القرآني، وقد كان في متناول فئة كبيرة من المسلمين في مصر. ولم يقم المؤلف وزنا للتفسير الشعبي الذي يقدره مؤلفو المواعظ، ولم يستطرد استطرادات نحوية او اسلوبية، واحترس كثيرا من التفسير المعتمد اعتمادا كبيرا على العقل[٢٣].

ان الغاية الاصيلة للتفسير القرآني هو استنباط مايتصل بعقيدتنا وشريعتنا لينصلح به امر ديننا ودنيانا، وهو ماعبر عنه المؤلف بقوله: (كانت الغاية منها «من كل مايتصل بالتفسير» اخراج العقيدة والشريعة)[٢٤].

ويعد هذا الفصل من الفصول التي احتوت على جملة من الحقائق والوقائع المتصلة بالتفسير ونشأته وملابساته واتجاهاته.

وقد كان المؤلف ــكما رأيناــ على اطلاع واسع بتلك الخطوط الرئيسية للتفسير، كما اتضح في بيانه للتفسير بالمأثور، والتفسير المعتزلي، وتفسير الصوفية، وموقف أهل السنة منها.

والمؤلف على دراية واسعة ــايضاــ بالحركات الاصلاحية الحديثة، وصلتها بالقرآن والسنة باعتبارهما مصدر القوة، والاحياء الشامل، للامة في وجه الاستعمار الغربي. فحديثه عن الشيخ محمد عبده، ومدرسة «المنار» التي تولت نشر تعاليمه، وتعبيره عن علاقة تفسير الشيخ ــفي بعض النواحيــ بمذهب المعتزلة، يدل على مدى تتبعه ورصده لتلك الصحوة الاسلامية، كما نطلق عليها اليوم.

---

(٢٢) الاستاذ في كلية دار العلوم في ذلك الوقت، اما اخوه الشيخ محمد فقد كان شيخا للازهر.
(٢٣) انظر: ١٢٧، ١٢٨ من المصدر السابق.
(٢٤) المصدر السابق: ١٢٨.

الفصل السادس
القرآن والسنة: مصدرا العقيدة والشريعة الاسلامية



(القرآن والسنة)
مصدرا العقيدة والشريعة في الاسلام

يتناول المؤلف في هذا الفصل القرآن والسنة كمصدرين للعقيدة والشريعة، بادئا بتعريف السنة بأنها (مجموعة الاقوال، والسلوك، وطرائق المأكل والمشرب والكساء، وتأدية الفرائض الدينية، ومعاملة المؤمنين والكافرين.

السنة ــ اذن ــ هي القاعدة التي نشأ عنها في العالم الاسلامي «اقتداء» صحيح بالنبي)[1] «ﷺ».

فالسنة هي السلوك القرآني الحي الذي طبقه الرسول «ﷺ». او كما قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلقه: (كان خلقه القرآن).

وقد سيطرت على بلاشير فكرة تشبيه السنة بالنسبة للقرآن بالتلمود بالنسبة لاسفار موسى[2].

ولا وجه للشبه بينهما، فان التلمود من وضع احبار اليهود وفقهائهم المنتسبين الى طائفة الفريسيين، في القرنين الاول والثاني، بعد ميلاد المسيح. واطلق على ما ألف اسم «المِشْنا» اي المثنى او المكرر. فهي تكرار للشريعة الموسوية، ثم شرحت «المِشْنا» على يد العلماء ــ ايضا ــ وسميت «الجمارا» اي الشرح او التعليق. ومن مجموع «المشنا» و«الجمارا» يتكون التلمود.

(١) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٢٩، وانظر: كتابنا: دراسات في علوم الحديث: ٣ ــ ٦ وقد عرف علماء الحديث السنة بأنها «كل ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول او فعل او تقرير او صفة خَلقية، أو خُلقية، او سيرة».

(٢) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ١٣٠ ــ ١٣١.

ويرفع كثير من اليهود التلمود فوق التوراة، ويرى بعض الحاخامات، ان من يقرأ التوراة بغير التلمود فليس له إله، ولذلك وجدنا المسيح عليه السلام يحمل على تلك الطائفة التي كتبت التلمود واعتبرته شريعة غير مكتوبة. وهم الفريسيون، وقد وصفهم بالكفر، والنفاق، وابتداع احكام جديدة، لم تنزل بها التوراة[٣].

لكنا نحن المسلمين نضع السنة في مرتبة تلي القرآن، ونعتقد انها وحي الله لنبيه محمد ﷺ، المبين للوحي القرآني، المفصل لمجمله، المقيد لمطلقه، المخصص لعامه، الموضح لمشكله، المؤكد لما امر الله به، او نهى عنه[٤].

فالسنة توضح مايشكل علينا في القرآن كما ان النسخ في القرآن، يزيل بعض التناقضات التي قد توجد بين بعض الآيات، فالآية اللاحقة ناسخة لحكم الآية السابقة، اذا وجد بين الآيتين تعارض ما. لكن النسخ بهذه الطريقة لايفي بكل مايتطلبه النقد التاريخي من الدقة ومن ثم فان السنة بمعطياتها من الحديث تسعفنا في حل مشكل القرآن، الَّا ان المؤلف يبذر ــ على عادته ــ اشواكا سامة، فيزعم ان هذه المعطيات (قابلة للاعتراض في قدرتها على ايصالنا الى نتائج صحيحة وقاطعة)[٥].

قد يقال ذلك في الاحاديث الموضوعة المكذوبة، لكن يستحيل ان تتناقض السنة الصحيحة مع ماورد من القرآن الكريم، ومع بعضها، اذ ان مصدر التلقي واحد، اما ما ظاهره التناض فقد وضعت فيه

---

(٣) انظر: الاسفار المقدسة في الاديان السابقة للاسلام: للدكتور علي عبد الواحد وافي: ٢٤، ٦٣ طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة بدون تاريخ. وانظر ايضا: مقارنة الاديان: اليهودية: للدكتور احمد شلبي: ٢٦٥ ــ ٢٦٦ الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤م.
(٤) انظر: امثلة لذلك في كتابنا: دراسات في علوم الحديث ٢٢ ــ ٢٦.
(٥) السابق: ١٣٢.

المصنفات التي تزيل هذا التناقض الظاهري كمشكل القرآن، ومشكل الحديث او مختلفه وهو علم قائم بذاته.

ويعود المؤلف فيتحدث عن اهمية القرآن كمنبع اساسي للشريعة، وشموله على الكليات الاساسية، والاطارات العامة في العقيدة والشريعة، وضرب مثالا لذلك، بما اكده الشيخ المراغي في تفسيره (بأن سورة الفاتحة تحتوي على كل مايجب ان يعرفه المسلم لكي يوجه نفسه في سلوكه الديني والاجتماعي).

ولقد كان الجيل الاول من المسلمين، يتتبع المثل الاعلى الذي قدمه محمد ﷺ، ويراقبه في سلوكه، وحياته المادية، ورسالته وسلطته المدنية، والسياسية، فعظم في نفوسهم، ونفوس الاجيال اللاحقة. وهذا ما اثبته القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾[٦] «سورة الاحزاب: **٢١**».

ويضرب المؤلف بعض الامثلة التي تدل على جهاده ﷺ الطويل في وجه قوى الشر، كما رأيناه شجاعا هادئا في غزوتي «احد» و«حنين».

ويشيد المؤلف بابن اسحاق المتوفي سنة **٧٦٩**م، الذي جمع سيرة محمد ﷺ في روايات متواصلة على حد قوله.

ولايفوت المستشرق الجاحد الكافر بنبوة محمد ﷺ ان يصدر كلامه عن جهاده ﷺ او نضاله كما سماه بأن محمدا كان يظهر لامته في ملامح رسول[٧]!! كأنه ليس كذلك!!

ويلاحظ ــ ايضا ــ انه يصور علاقة القرآن بالسنة في دائرة «النضال»

---

(٦) اخطأ المؤلف والمترجم معا حين صدرا الآية بقوله: ياأيها المؤمنون، وليس الامر كذلك، فان الآية بدون هذا النداء.

(٧) انظر: المصدر السابق: ١٣٤.

و«المعـارك» ويستشهد ببعض كتب السيرة التي تقف عند هذا الحد، ويغفل او يتغافل ان سنته وسيرته ﷺ تشمل جوانب حياته كلها كما ذكر هو في مقدمة الفصل، لكن التركيز على جانب القتال وتصوير الاسلام بأنه دين حرب وقتال، امر مقصود.

ثم ان السـيرة جزء من السنة، التي امتلأت بها كتب الصحاح، والجوامع، والمسانيد، والمعاجم، والمستدركات، والمستخرجات، وغير ذلـك، مما تنـاول عبـادتـه ﷺ واخلاقه، وزواجه، وأبوته، وعلاقته بأزواجـه، واهله، واصحابه، واعدائه، وطرائق معاملته، ومعيشته، وقيادته وتعليمه، ودعوته، وغير ذلك، مما شمل حياته كلها قبل البعثة وبعدها.

لكن المستشرق ــ ككثير من المصنفين امثاله ــ لايقفون اذا ذكرت السنة او السيرة الا عند الجانب الحربي!!

وينتقـل المؤلف الى تنـاول بعض العقـائـد الاساسية في القرآن، كوحـدانية الله، وحقيقـة الوحي، والحساب والجزاء، وكنا نتوقع من عنـوانـه لهذا الفصـل «القـرآن والسنة مصدرا العقيدة والشريعة» ان يتحدث عن فهمه لهذه العقائد كما عرضها القرآن وبينتها السنة. وكيف ان القرآن ــ مثلا ــ لفت أنظار الخلق من اول آية نزلت فيه الى آيات الله المبثوثة في الكون، والنفس، والتاريخ البشري، في السماء وارتفاعها، وسمكهـا، وشمسهـا، وقمرها، ونجومها.. وفي الارض وبحارها، وانهارها، وحيواناتها، ونباتاتها.. وما في الخلق من تنوع وتسوية وتقدير واهتداء.. وفي التاريخ من مصارع المكذبين الجاحدين لما انزل الله.. الخ.

كنـا نتوقع ان يعرض المؤلف هذا وامثاله، مما يدل على التوحيد،

والايمان بالبعث، واليوم الآخر، وغير ذلك مما يعرضه القرآن من عقائد. لكنه اعرض عن هذا لانه لايقصد اصلا ان يعرف الناس بحقيقة القرآن والسنة.

فماذا عرض اذن؟!

انه عرض لموقف بعض الفرق الاسلامية من العدل الآلهي، والقدر، والتشبيه المتعلق بصفات الله كموقف المعتزلة، والجبرية، والمحدثين، والمتصوفة، ويعرض ذلك عرضا ملتويا يشعرك بالفرقة والاختلاف. ويجعل مدخله لهذا الحديث ان القرآن لم يمدنا بقانون للايمان فقط بل امدنا ـ ايضا ـ بالاطارات التي استطاع وفقها المفسرون والمتكلمون ان يضعوا اركان الدين بالاستناد الى النص كما يقول[8]!!

وفي ثنايا عرضه لتلك العقائد يحكم على المقطع القرآني الذي تناول اهل الاعراف بأنه مقطع مذهل بغموضه يقول ـ وعليه إثم ما قال ـ: [ان هذا المقطع المذهل بغموضه (نستطيع ان نتساءل «كلام المؤلف نفسه» اذا ما كان هذا التبليغ متأخرا وقد ادخل في موضوع قديم) قد اجاز لبعض المتكلمين ان يثبتوا وجود اقامة متوسطة بين الجنة والجحيم حيث تمكث الانفس التي لم تتحقق بعد من مصيرها الاخير. هكذا ادخلت فكرة الاعراف التي لم تكن في الاصل معروفة في علم الاخرويات القرآنية بمعناها الحرفي][9].

اما تساؤلِه عن هذا التبليغ وزمانه ومكانه من القرآن فهو سؤال المشكك في القرآن الذي لايؤمن بأن ترتيب الوحي القرآني ترتيب توقيفي من الله. كل آية فيه، بل كل كلمة بترتيب الله ﴿**ان علينا جمعه وقرآنه**

---

(٨) انظر: المصدر السابق: ١٣٧.

(٩) المصدر السابق: ١٣٩.

فاذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾[10].

واما الغموض الذي يتحدث عنه، فهو في ذهنه هو لجهله بلغة القرآن، وركونه الى بعض الذين اغرقوا الناس بأوهام، وايحاءات لاصلة لها بالحقيقة القرآنية، كابن عربي المتصوف الذي منه استوحى غموض المقطع القرآني المتصل بالاعراف.

والآيات التي تناولت أهل الاعراف هي الآيات «٤٦، ٤٧، ٤٨» من سورة الاعراف وليست كما ذكر المؤلف: ٤٤، ٤٥، ٤٦[11].

واصل كلمة الاعراف من العُرْفَة والجمع عُرَفٌ وأعراف، وهو في اللغة: الرمل المرتفع، والمراد به في القرآن: حجاب او سور بين الجنة والنار كما ذكر صاحب الصحاح وغيره[12].

واهل الاعراف قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، ووقفوا بين يدي ربهم يرون اهل الجنة فيتوجهون اليهم بالسلام «سلام عليكم»، راجين الله تعالى ان يدخلهم الجنة مع اهلها، واذا وقعت ابصارهم على اهل النار استعاذوا بالله متضرعين له **﴿ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين﴾**.

وينادي اهل الاعراف رجالا من المجرمين المكذبين: **﴿ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾** فما افادكم الجمع من اي نوع كان، ولا اغنى عنكم استكباركم ولا علوكم؟! ثم يبكت اهل الاعراف هؤلاء المجرمين: **﴿أهؤلاء** ــ اي أهل الجنة ــ **الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة﴾**؟! فأين مصيرهم؟ **﴿ادخلوا الجنة لاخوف عليكم**

---

(١٠) سورة القيامة: ١٧، ١٨.

(١١) المصدر السابق: ١٣٩.

(١٢) الصحاح للجوهري، ٤/١٤٠١ واقحم المترجم نفسه، فعرف الاعراف بأنها المكان الذي تطهر فيه النفس!! انظر هامش صفحة ١٣٩ من المصدر السابق.

ولا انتم تحزنون﴾!!.

فأي غموض مذهل هذا الذي يتحدث عنه هذا المسشرق؟!!

* * * *

وفي حديث بلاشير عن العدل الالهي يذكر هاتين الآيتين من سورة آل عمران: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب**﴾ «٢٦، ٢٧». ويعلق عليها بأنها تثبت سلطة الله المطلقة في تقديره للامور، وحريته التي لا اعتراض عليها في احكامه، وقراراته، التي تستغلق علينا الدوافع اليها. ثم يسوق بعد ذلك آيتين من سورة الاسراء «١٥، ١٦»: ﴿**من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر اخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**﴾.

ان المؤلف يوحي بعرضه هذا بان النصين بينهما تعارض، فالاول يعطي السلطة المطلقة لله وحده في الحياة، والخلق، والكون، والثاني يعطي قليلا من الحرية للانسان، بل ان المؤلف يذهب الى انه (من المحتمل جدا كما فكر «غودي فروا دومومبين» ان يكون تطور الظروف التاريخية في مكة ثم في المدينة قد عدل اتجاه الوحي القرآني، وزاد في اعطاء المخلوق الانساني قليلا من الحرية في تحقيق مصيره)[١٣].

(١٣) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٤١ ـ ١٤٢.

فانظر كيف يتحدث المستشرق عن حرية الله المطلقة ثم يذكر تأثير الظروف التاريخية في تعديل مسار الوحي!!

ثم خطأ آخر، فآيات سورة آل عمران التي تتحدث عن سلطة الله المطلقة مدنية، وآيات سورة الاسراء التي تتحدث عن حرية الانسان واختياره لطريقه مكية، فكيف يتسق هذا مع قوله ان تطور الظروف التاريخية عدل مسار الوحي وزاد في اعطاء الانسان قليلا من الحرية؟!!

ان الذي لم يفهمه المستشرق ان الله الخالق لهذا الكون، المالك المهيمن عليه، له السلطة المطلقة في كل شيء ﴿**قل ان الامر كله لله**﴾[14] مايتعلق بالانسان، ومايتعلق بالكون كله وهذا ماذكرته آيات آل عمران، فهو سبحانه على كل شيء قدير.

وهو سبحانه ـ بعدله ورحمته ـ اعطى للانسان حرية الاختيار ﴿**إنا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا**﴾[15] وان ﴿**من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر اخرى**﴾ الى آخر تلك الآية التي استشهد بها المستشرق نفسه، فكل انسان سيجني مازرع، ويقطف ماغرس، ﴿**وان ليس للانسان الا ماسعى. وان سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الاوفى**﴾[16] والنتائج ترتبط بمقدماتها، والاسباب بمسبباتها. فتلك سنة الله في خلقه وكونه ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾[17].

وقانون الله هذا عام، يشمل المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، ﴿**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك**

---

(١٤) سورة آل عمران: جزء من الآية ١٥٤.

(١٥) سورة الانسان: ٣.

(١٦) سورة النجم: ٣٩ ـ ٤١.

(١٧) سورة الاحزاب: جزء من الآية: ٦٢.

محظورا﴾[18]. لكن الذي يفترق فيه المؤمن والكافر ان المؤمن يعتقد اعتقادا جازما ان الاسباب لاتعمل وحدها، وان المقدمات لاتقف وحدها، لنحصل على نتائجها بل وراء ذلك كله «الله» مسبب الاسباب، ومرتب النتائج على المقدمات، ومن ثم طولب المؤمن بعد ان يأخذ بالاسباب ان يتوكل على الله، والتوكل عليه، عمل القلب الذي يسلم اليه الامور بعدما ادت الجوارح عملها **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾**[19].

فهذا هو التوكل الذي لم يفهمه ـايضاـ بلاشير حين ذكره عقب الحديث عن حرية الانسان، واعتبر التوكل من الايمان الذي يؤدي الى الطمأنينة السعيدة. قال: (لقد كتب المراغي مثلا: لقد وعدنا الله عندما نعوذ به ان يجيب دعوة الداعي اذا دعاه. لقد قال الله نفسه **﴿ادعوني استجب لكم﴾**[20] وقد عبر الرازي عن اعتقاده بألفاظ مشابهة وقبل المراغي بسبعة قرون قائلا: ان المغفرة ثواب الايمان. غير ان هذه الاستجارة بالله، او هذا التوكل عليه، كما رأينا لم يظهر في القرآن اثناء بعض المحن التي كابدها محمد «ﷺ» في احد او يوم وقعة حنين)[21].

لقد كذب بلاشير في هذه ـكذلكـ فان استجارتهم بالله وتوكلهم عليه ظاهر في القرآن لكن بحسابه وبقدره.

ففي غزوة احد اذاق الله المسلمين النصر في باديء المعركة، وصدقهم وعده، وحقق لهم سنته، ولما ضعف الرماة امام الغنائم،

---

(١٨) سورة الاسراء: ٢٠.
(١٩) سورة الطلاق: جزء من الآية: ٣.
(٢٠) سورة غافر: جزء من الآية: ٦٠.
(٢١) القرآن: نزوله، وتدوينه: ١٤٢.

وخـالفـوا امـر رسـول الله ﷺ، فلم يثبتـوا في مواقعهم سلبوا النصر ــحينئذــ تحقيقا لسنة الابتلاء والتمحيص.

وفي صدق الله وعده لهم يقول القرآن: **﴿ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه** «تحمدون حس المشركين المقاتلين» **حتى اذا فشلتم وتنـازعتم في الامر وعصيتم** «اشارة الى مخالفة الرماة وعصيانهم لامر رسول الله» **من بعدما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾**.

وقد تجلت استجابة الله للطائفة المؤمنة التي تريد الآخرة وتستجير بربها، بأن انزل عليهم بعد الهزيمة نعاسا أمناً وطمأنينة لهم **﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾**.

وندب النبي ﷺ اصحابه في طلب المشركين وهم مثخنون بالجراح، فاستجـابـوا لله، ورسـوله، كما قالت الآيات: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما اصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم﴾**.

ثم توضـح الآيات بعـد ذلك لجوء المؤمنين الى الله وتوكلهم عليه فتقول: **﴿الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايـمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾**[٢٢][٢٣].

فأي تصريح اوضح من ذلك في توكل المؤمنين على الله في معركة

---

(٢٢) القرآن: نزوله، وتدوينه: ١٤٢.
(٢٣) تراجع الآيات الخاصة بمعركة احد في: سورة آل عمران: من ١٢١ ــ ١٧٩.

احد، واستجابتهم لله ورسوله، وجراحهم لم تضمد بعد!!

واما في غزوة حنين فان المؤمنين غفلت قلوبهم لحظات عن الله صاحب القوى والقدر، وركنوا الى الاسباب وحدها، ونسوا التوكل عليه ــسبحانهــ فأعجبتهم كثرة عددهم وعُددهم، فكانت النتيجة المحتومة ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين**﴾[٢٤].

لكن الله المربي لهم ــوهم الفئة المؤمنة في الارضــ لم يتركهم بعد ان اخذهم بذنوبهم، وعاقبهم على غرورهم فذاقوا مرارة الهزيمة. ﴿**ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾[٢٥].

فهذه استجابة الله للمسلمين التي تأتي بقدر موزون وفق سنن الله في الكون، فان استجاروا به اجارهم، وان توكلوا عليه فهو حسبهم، وان ركنوا الى انفسهم وعددهم وعتادهم خذلهم، وان عادوا اليه ماشين اقبل عليهم هرولة!!

وهذا ماغفل او تغافل عنه ذاك المستشرق بلاشير.

* * * *

وفي حديث المؤلف عن الشريعة يرى ان القرآن كان حديثه عن التشريع أقل كمّا من حديثه عن العقيدة، والسور المكية قد امدتنا بعناصر مهمة لتحديد بعض الشعائر كالصلاة، الا ان النصوص المدنية تحتوي على المعطيات الاساسية لما يكون الفقه[٢٦].

---

(٢٤)، (٢٥) سورة التوبة: ٢٥. ٢٦.

(٢٦) انظر: القرآن: نزوله. وتدوينه.

لكن ما المراد بالفقه في نظر المؤلف؟!

انه يجيب فيقول: (انما نعني به مجموعة القواعد والعادات التي تنظم حياة المؤمن كالعبادات، والحق الشخصي، والعائلي، والقانون المدني، والتجاري، والقانون الجنائي، والانظمة الدولية)[٢٧].

ويسوق المؤلف بعض الامثلة من القرآن كالصيام، المفروض وما يتعلق ببعض احكام الطلاق كالعدة سوقا مجملا، ثم يتناول الخمر وتحريمها بشيء من التفصيل، وكثير من فهمه السقيم، وخلطه العليل.

يبدأ فيذكر قوله تعالى في سورة النحل: ﴿**ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا**﴾[٢٨]، ويعلق عليها فيقول: (ان التفسير بالحديث قد استخلص من عبارة «سكرا» تأويلا توفيقيا يقول بأن المقصود بالسكر هنا هو نبيذ التمر الذي اباحت شربه مدرسة من مدارس الفقه)[٢٩].

وواضح من النص خلط المؤلف، وعدم فهمه للسكر في اللغة، وفي الآية، واتهامه الباطل لبعض المدارس الفقهية باباحة نبيذ التمر، فهو:

اولا: لم يذكر الحديث الذي يقصر السكر على نبيذ التمر، والسكر في النص يراد به الخمر، ففي اللغة: «اسكره الشراب ازال عقله»[٣٠] والآية ــ وهي في سورة مكية ــ تصف واقع المكيين ومن حولهم فقد كانوا يتخذون السكر من التمر والاعناب، فكيف يقصر المؤلف السكر على نبيذ التمر وحده، مع ان النص القرآني يدل على اتخاذهم السكر من

---

(٢٧) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٤٤.
(٢٨) سورة النحل: من الآية: ٦٧.
(٢٩) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٤٧.
(٣٠) المصباح المنير: مادة سكر: ٢٨٢.

كلا الصنفين؟!

وثانيا: ان وصف الرزق في الآية بالحُسن، وانعدام هذا الوصف في «السكر» يدل على انه سيكون رجسا يحكم الشرع بتحريمه كما يقول الألوسي[٣١] فآية النحل هذه اول آية جاءت في التدرج في تحريم الخمر.

وثالثا: انه ليست هناك مدرسة من مدارس الفقه «وهو يشير الى الحنفية» قد اباحت شرب نبيذ التمر بهذا الاطلاق الذي يوحي به بلاشير.

يقول ابن تيمية: (جاء عن النبي ﷺ انه «كان يشرب النبيذ» والمراد به النبيذ الحلو، وهو ان يوضع التمر او الزبيب في الماء حتى يحلو ثم يشربه)[٣٢].

وهذا ليس مقصودا قطعا بالنص القرآني الذي في آية النحل، لانها تتحدث عن «السكر» الذي يزيل العقل. اما ما اتهم به ابوحنيفة ومدرسته فيرده ابن تيمية ــ ايضا ــ اذ يقول: (اما الخمر التي هي عصير العنب الذي اذا غلا واشتد وقذف بالزبد فيحرم قليلها وكثيرها، باتفاق المسلمين، ومن نقل عن ابي حنيفة اباحة قليل ذلك فقد كذب، بل من استحل ذلك فانه يستتاب فان تاب والا قتل).

ثم يقول: (بل وابوحنيفة يحرم القليل والكثير من اشربة أخر وان لم يسمها خمرا كنبيذ التمر، والزبيب النيء، فانه يحرم عنده قليله وكثيره اذا كان مسكرا)[٣٣].

ويسوق المؤلف الآيات التي تدرجت في تحريم الخمر، كقوله سبحانه: ﴿**لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون**﴾

(٣١) انظر: روح المعاني للألوسي: ١٨١/١٤.
(٣٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠٣/٣٤.
(٣٣) المصدر السابق: ٢٠٢/٣٤.

«النساء من الآية **٤٣**»، وقوله عز وجل: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما اكبر من نفعهما**﴾ «البقرة من الآية **٢١٩**»، وقوله تعالى: ﴿**انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه**﴾ «سورة المائدة من الآية **٩٠**».

والتدرج في التحريم واضح في الآيات، حتى جاء التحريم القطعي الجازم الحاسم في قوله سبحانه: «فاجتنبوه» وهو تعبير اشد وقعا، وابلغ حسما من قولنا: «حرَّم ـ أو نهى» او غير ذلك، لان التحريم هنا لاينصب على الشرب او التعاطي فقط، بل وعلى مجرد القرب من مجلس الشراب رضا به كذلك، وقد جاء في الحديث: (**لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة اليه، وآكل ثمنها**)[٣٤].

لكن بلاشير كذب على الله، وعلى رسوله، وعلى الناس، وعلى المذاهب الفقهية الاسلامية، فيصورها كأنها اختلفت فيما بينها في تحريم الخمر، ويتساءل بخبث: هل كان المقصود بتحريمها تحريما جزئيا او مطلقا؟! ويجيب بخبث اشد: وهذا ما اختلفت عليه مدارس الفقه[٣٥]. وهو كلام لايصدر الا عن مخبول او مخمور!! فليس هناك فقيه واحد من فقهاء الاسلام المعتبرين قال بأن الخمر ـ أو بعضها ـ محرمة تحريما جزئيا لا كليا ولا قطعيا «فضلا على ان يكون القائل بهذا مدرسة فقهية!!». وقد رأيت ابن تيمية قد كذَّب من ينسب الى ابي حنيفة شيئا من هذا. (**وكل مسكر خمر وكل خمر حرام**)[٣٦]. و(**ما اسكر**

---

(٣٤) رواه ابوداود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣٥) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ١٤٩.
(٣٦) اخرجه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/١٩٤.

كثيره فقليله حرام)(٣٧) كما ثبت عن رسول الله ﷺ.

وهكـذا تنكشف سوأة هذا المستشرق، خبثـا في الطوية ومكرا في الكذب، واعوجاجا في الفهم.

ويختتم المؤلف هذا الفصل بضرب مثال آخر للفقه الاسلامي، في قسمة الغنائم، وفي الصلاة. وفي المثال الاخيريركز على علاقة التشريع القرآني للصلاة واهميتها بالسنة النبوية، وكيف ان السنة قد أمدتنا بشيء من معرفة ما كانت عليه الصلاة في البدء قبل ان تكون بشكلها الحالي، وينقل عن صحيح البخاري فيما يرويه عن عائشة رضي الله عنها ان الصلاة فرضها الله (ركعتين ركعتين في السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر)(٣٨).

لكن الذي يلفت النظر، ان المؤلف ذكر من السنة حديث البخاري عن فرضية الصلاة حين عرج به ﷺ وكيف (تدخل موسى في تحديد فريضـة اسـاسية على المسلم)(٣٩) حين طلب من رسول الله ﷺ بعد معرفته فرض الله خمسين صلاة على أمة محمد ﷺ ان يرجع الى ربه، ويسـألـه التخفيف، الى ان يقـول الحديث عن رسول الله ﷺ(٤٠): **(فراجعته فقال هي خمس، وهي خمسون لايبدل القول لديَّ، فرجعت الى موسى فقال راجع ربك فقلت: استحييت من ربي)**(٤١).

وتدخل موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ليس وصاية على أمة

---

(٣٧) اخرجه احمد واصحاب السنن الاربعة وصححه ابن حبان عن جابر بن عبد الله عنه.

(٣٨) صحيح البخاري: ١/ ٧٥ هكذا ذكره بلاشير صفحة ١٥٣ ــ ١٥٤ والحديث في كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلوات في الاسراء لكن نص الحديث: «في الحضر والسفر» وليس في السفر والحضر كما قال.

(٣٩) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٥٦.

(٤٠) السابق: ١٥٥.

(٤١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلوات في الاسراء.

محمـد ﷺ، كما يلوح ذلك المستشرق، وانما هي اخوة النبوة، واخوة الايمان التي دفعت موسى الى ان يسأل التخفيف في التكليف، فان له تجربـة مرة مع اليهود، فموقفه هذا شهادة ضد أمته التي تمردت على تكاليف الله، وسجل الله عليهم قولهم: «سمعنا وعصينا»[٤٢].

ولاينسى بلاشير ان يذكـر وهـو يتحـدث عن مصدري العقيدة والشريعة «القرآن والسنة» اهمية الاجتهاد او الاستنتاج القياسي، وهو امر لايتعارض مع السنة او القرآن. لكن الاغراق في الاعتماد على العقل او الاقيسة المنطقية يشكل تطرفا يرفضه المعتصمون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ثم يقول المؤلف منهيا تلك الفكرة باسلوب فيه تعميم وابهـام: (عـلى اية حال انه حصل تجاوز للواقعة القرآنية في القضايا المقصودة هنا، وحينئذ دخل الفقهاء والمتكلمون في مجال آخر قلت فيه ثقتهم بمسيرتهم، ولم يتقدموا فيه الا باحتراس، ان لم يكن ذلك كرها، ان المثـال الصـارخ على ذلك قد أمدنا به الشيخ محمد عبده، وجميع الذين بشروا من بعده باحياء الاسلام بالرجوع الى روح القرآن وحرفيته وبالرجوع الى سنة محمد)[٤٣] «ﷺ».

---

(٤٢) سورة البقرة: من الآية: ٩٣. وسورة النساء: من الآية: ٤٦.

(٤٣) القرآن: نزوله، وتدوينه: ١٥٧.

الفصل السابع
القرآن في الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي



القرآن في الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي

يتناول المؤلف في هذا الفصل تأثير القرآن في الحياة الاسلامية، وافتتان المجتمع الاسلامي بالكتاب الكريم افرادا وجماعات.

وقد جاء وصف المؤلف دقيقا الى حد كبير، اذ انه عاش فترة طويلة، ــ كما ذكرنا من قبل ــ في المغرب والجزائر، حيث تعلم في المرحلة الثانوية والجامعية في كلا البلدين فاسترعى انتباهه ما للقرآن من التأثير العميق على الفرد، سواء أكان ذلك الفرد رجلا او امرأة.

وقد رد هذا التأثير الى كون القرآن في اعتقاد المؤمن منزلا من الله الحكيم، وانه ذو اعجاز مطلق[1]، لايدانيه، ولايساويه كلام إنسي ولاجني.

يعرض المؤلف في هذا الفصل تأثير القرآن في المؤمن حفظا له، وفهما، ودراسة، وكتابة وتسجيلا، واعتقادا وتجويدا.

يتشرب الطفل المسلم القرآن منذ سن الخامسة او السادسة، ويمتد في المتوسط فترة ست او سبع سنوات، وقد يطول عند كثير من المراهقين الى ابعد من ذلك بكثير، ومما يقوي هذا التطبع والتشرب ان كل شيء يساعد الطفل على هذا التأثير: من احترام للقرآن يستطيع الولد ان يلاحظه حوله، ومن تقدير عظيم للافراد الذين يحفظون القرآن ويعلمونه، ومن ثم عندما يصبح الولد تلميذا يشعر بكبر شأنه، من خلال نظرته لنفسه، بسبب القرآن الذي زود به[2].

ولايزال حفظ القرآن الغيبي عند عامة المسلمين وعند الاكثرية الساحقة من الاطفال زادا اساسيا للدراسات.

---

(١) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ١٥٨، ١٥٩.
(٢) المصدر السابق: ١٥٩.

ويبين المؤلف مدى احتفاظ الطفل بذكريات الاوقات التي كان فيها معلم القرآن في القرية، او البدو يعلم تحت خيمة، او في بيت وضيع، بينما كان يجلس في المدينة في غرفة صغيرة لايفرش فيها غير الحصير.

ويلاحظ التطور الذي بدأ في تعليم القرآن، بادخال التعليم الحديث، بحيث اصبحت دراسة القرآن لاتشكل المادة الوحيدة لتنشئة التلميذ مابين الخامسة والثانية عشرة من عمره. كما ان المباني نفسها قد آلت الى الزوال، شيئا فشيئا، واصبح المعلمون ذا ثقافة متعددة الجوانب (فلقد تكونت في كل مكان تقريبا مؤسسات تعمل على تنشئتهم، كما ان وسائل عيشهم من جهة اخرى لم تعد تقتصر دائما على مايجود به الاقرباء. ان الشيء الذي لم يتغير بالمقابل ابدا هو التربية، فقد بقيت الذاكرة الاداة الاساسية للالمام بالكتاب. وهذا الكتاب يشكل في الخلاصة زادا دينيا يجب ان يندمج ببصيرة الطفل نفسها، ثم ببصيرة المراهق)[3].

ولقد كانت الكتابة تدخل في تعليم القرآن كعامل مساعد للذاكرة. ويكتب الطفل ـ بعد تعلمه مباديء الكتابة ـ النص القرآني الذي يجب ان يحفظه (وهو مانسميه «اللوح». .) بادئا بحفظ الفاتحة ثم السور القصيرة التي هي نهاية المصحف ليعود الى اوله بعد ذلك.

وفي بيان الهدف من هذه التربية، يقول المؤلف: (هدف المربين منذ بداية الاسلام تزويد المهتدين الجدد، وبالنتيجة تزويد الولد فيما بعد بالنصوص القرآنية التي تحتوي على العقيدة، وأسس الايمان. . ان التلميذ بهذه الطريقة حتى اذا لم يتوجب عليه التعمق في دراسة الكتاب، يجد نفسه مزودا بالنصوص الرئيسية التي تصاغ بها العقيدة كما

---

(٣) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ١٦١.

هو الحال مثلا في الآيات الست «والصحيح الاربع»[٤] التي تموّن سورة الاخلاص)[٥].

القليل من الاطفال هم الذين يواصلون الحفظ للقرآن كله. اما الاكثرون فان ماتحتفظ بهالذاكرة يكفي لان يقتنع شخص منا بأنه ينتمي بفضل القرآن الى أمة القرآن الامة التي تفتخر بأن يكون نمط سلوكها نابعا من الوحي القرآني.

اما الذين لم يلموا بشيء من القرآن، ولم يحفظوا غيبا شيئا من اصول هذا الوحي القرآني، فانهم قد ارتكبوا نقصا في عقيدتهم، ولذا يضطر هؤلاء لكي يندمجوا في حظيرة الاسلام ان يحفظوا غيبا بعض السور القصيرة[٦] كما يقول المؤلف.

وينهي بلاشير حديثه عن تعليم القرآن وتحفيظه او تشربه ــعلى حد تعبيرهــ بقوله: (ومهما بلغت مقاومتنا قولا وعملا لهذا التعليم، وطرائقه الهرمة فان هذا التعليم يظل ضمانة تتخذها الامة، بصدد الوحي الذي تلقاه محمد «ﷺ».. بهذا يتخلد من جيل الى جيل الشعور بأن النص الذي انزله الله هو في عداد الاجزاء المكملة للخلق، وان هذا النص هو من الخلق بمثابة الجوهر الحي)[٧].

هذا مايتعلق بالحفظ الغيبي.

امـا مشكلة فهم النص القـرآني فان معلم المدرسة «او الشيخ او سيدنا» لم يكن في البداية مكلفا بافهام الولد معنى النص القرآني، بل يكفيه ان يرتل القرآن حسب قواعد علم التجويد، مع حسن الكتابة.

---

(٤) تنبه الى خطأ بلاشير وصححه مترجم الكتاب.
(٥) المصدر السابق: ١٦١ ــ ١٦٢.
(٦) المصدر السابق: ١٦٣.
(٧) المصدر السابق: ١٦٣.

لكن الامر يتغير اذا تقدم الطفل في السن، واحتاج الى فهم النص الذي يحفظه، وكان عليه، تحقيقا لهذا الفهم، ان يحصل قدرا كبيرا من الاحاديث، الى جانب العلوم الاخرى المتممة لدراسة النص القرآني لقواعد الصرف، والنحو، والادب العربي، وعلم البيان. (ويبقى القرآن بالرغم من كل شيء الركن الاساسي للتثقيف، ويتأكد هذا الواقع اذا ماتخصص الطالب في علوم الفقه. ان الارتقاء الى الثقافة الانسانية يبقى في الاسلام رهنا بالضمانة القرآنية له، ويظل هذا الارتقاء يزداد حمية وتأثرا بالضمانة القرآنية، لاسيما وان العقل الباحث، كان يرجع باستمرار الى الوحي والسنة فيتحدد بالانطلاق مفهما)[٨].

اما عامة المسلمين الذين لم يطلبوا التعمق في الثقافة القرآنية، او طلبوه ولم ينالوه، فانهم يُجلون المصحف اجلالا يرتكز على مشاعر لايبحث في تحديدها، كما يقول المؤلف، وتمتزج بذلك الاجلال مخاوف خرافية يحتل فيها الاحترام لكل شيء مكتوب من القرآن مكانة واضحة.

ويستغرب المؤلف من ان المسلم الذي يبلغ سن الرشد لايتذكر فظاظة المعاملة القاسية التي تلقاها في المدرسة القرآنية «الكتاتيب»، وتظل ذاكرته لهذه الفترة من حياته، تعي هذا المقام المستقل للقرآن وحفظه، وبخاصة تلك الاعياد شبه العائلية، وشبه الجماعية، التي يحتفى بها لختم كل مرحلة من مراحل حفظ كتاب الله، وما يناله الطفل من تكريم ومكافأة وحفاوة.

ان ذكريات الماضي هذه، ترسخ من اجلال القرآن، وتعظيمه في النفوس، ويعزز ذلك عوامل كثيرة، طيلة حياة المؤمن على الصعيدين

(٨) المصدر السابق: ١٦٤.

الجماعي والاجتماعي، من هذه العوامل: مافرضته السنة على المصلين في صلاة الجماعة من تلاوة نص قرآني قصير كل يوم عقب سورة الفاتحة المفروضة بالحديث[٩].

ومنها ايضا صلاة الجمعة، التي تضفي الوحدة الروحية في الاسلام (واخيرا الميزة الرسمية التي تقلدها القرآن في جميع الازمنة وفي الاوساط الكبرى بفضل وجود السلطات الحاكمة. كل هذه الامور أدت الى وضع الكلام القرآني في المركز الاساسي الذي يعود له في الحياة الجماعية)[١٠].

ويلفت المؤلف النظر الى ما لسورة «يس» من احترام فائق بسبب موضوعها اذ تتناول الوجود الانساني، فلذا تتلى عادة على المحتضرين.

وفي رمضان يحظى القرآن بكامل روحانيته، ويظهر قوة تأثيره في ذلك التشرب الجماعي الذي يبدو في صلاة الجماعة في رمضان، وما يعقب صلاة العشاء من التراويح، والتي تتلى فيها اجزاء كاملة من المصحف وتتم هذه الممارسة بحماس، وتستمر حتى صلاة الفجر على شكل شعائر تختلف تبعا لمدارس الفقه[١١].

وينقل المؤلف عن جوميه ماوصفه سنة **١٩٥٦**م من الورع الذي يرافق القراءات الجماعية في القاهرة ثم يقول: (غير ان هذه المظاهر التقية الجماعية، هي عامة في جميع المراكز الاسلامية الكبرى)[١٢].

ويتناول المؤلف بعد ذلك اجلالا خاصا بالقرآن ـ على حد قوله ـ

---

(٩) قراءة سورة او نص قرآني عقب الفاتحة ليس فرضا كما قال المؤلف بل هي من السنن.
(١٠) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٦٦.
(١١) يشير المؤلف هنا الى اختلاف عدد صلاة التراويح في المذاهب، وكلها تستند الى فعل الرسول ﷺ.
(١٢) المصدر السابق: ١٦٧.

باعتباره وحي الله الاعلى، وفي الوقت ذاته كتابا مشحونا بقدرة خيرة وتطهرية. فالقرآن يتغلغل في الحياة الفقهية في المجتمع الاسلامي كالتوراة في المجتمع اليهودي، وهو كتاب مقدس في كل نسخة منه، وفي اي شكل كتبت، فقد قال تعالى في الآية التاسعة والسبعين من سورة الواقعة: **﴿لايمسه الاَّ المطهرون﴾**، وكل المذاهب الفقهية قد اقرت القسم بالقرآن.

وعلى المستوى الشعبي، فان بعض اجزاء القرآن يكتب في حجم مصغر جدا تعلق في العنق، (كما ان التقنية الحديثة نفسها قد توصلت الى اعداد مصاحف صغيرة جدا للجمهور)[١٣] لهذا الغرض ذاته.

وقد يستخدم بعض العامة الكلمات او العبارات القرآنية التي يعتقد انها تحمل قوة سحرية من نوع خاص في تحضير الطلاسم[١٤].

ويعلق المؤلف على سورة الفلق، وما صدقها من احاديث فيقول: (ان بعض الاحاديث المحفوظة في صحيح البخاري مثلا، تصدق الاعتقاد القائل بأن بعض السور تحمل بذاتها علاجا ضد العين الشريرة والشعوذات)[١٥].

ان الحسد ــ وهو توجه انفعالي نفسي من الحاسد لزوال نعمة من المحسود ــ امر غيبي كالسحر، الذي هو في حقيقته، ليس الاَّ تخييلا

(١٣) المصدر السابق: ١٦٨.

(١٤) لايجوز شرعا استخدام القرآن في اعمال السحر لايذاء المسلمين، والسحر لايأتي بخير قال تعالى: **﴿ولايفلح الساحر حيث أتى﴾** سورة طه من الآية ٦٩ وقال سبحانه: **﴿ولايفلح الساحرون﴾** سورة يونس: من الآية ٧٧.

(١٥) المصدر السابق: الموضع نفسه. ويلاحظ ان المؤلف في صفحة **٣٩** من كتابه تعرض لسورة الفلق بأنها مجرد ادعية، بل اقوال في السحر، وهو هنا يذكر انها علاج ضد العين الحاسدة، والشعوذات «الشعوذة: ما لاحقيقة له كالسحر، ومنهم من يقول: شعبذ. انظر: المصباح المنير: مادة: شعوذ صفحة **٣١٤**» واذا كان بلاشير يكفر بما قررته سورة الفلق فعليه كفره، وقد رددنا عليه في الموضع الاول بما يستأهله.

للاشياء، دون تغيير لحقائقها، كما قال تعالى في قصة موسى مع السحرة: ﴿**فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى**﴾[١٦]. فحتى موسى أثر فيه هذا التأثير الغيبي التخييلي فخاف في نفسه لكن الله ثبته ﴿**فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لاتخف انك انت الاعلى**﴾[١٧].

فالحسد والسحر كلاهما امر مغيَّب، قد يأتي بالضرر والاذى، ودفعهما يكون كما علمنا الله القوي القادر، الضار النافع، بأن نلجأ اليه، ونعوذ به من شر الحاسدين والساحرين!!

فماذا في هذا ايها المستشرق؟!

* * * *

ويبين بلاشير مكانة سورة الاخلاص وثوابها كما جاء في سنة رسول الله ﷺ بأن ترتيلها ترتيلا مستمرا خلال الليل يساوي الاستحقاق نفسه الذي تساويه تلاوة ثلث الكتاب[١٨] «الكريم».

يشير بلاشير الى حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري عن ابي سعيد، ان رجلا سمع رجلا يقرأ ﴿**قل هو الله احد**﴾ يرددها فلما اصبح جاء الى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالّها فقال رسول الله ﷺ: (**والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن**).

واخرج عن ابي سعيد قال: (اخبرني اخي قتادة بن النعمان ان رجلا قام في زمن رسول الله ﷺ يقرأ من السَّحَر ﴿**قل هو الله احد**﴾ لايزيد عليها..) الحديث بنحوه[١٩].

---

(١٦)، (١٧) سورة طه: الآيات: ٦٦، ٦٧، ٦٨.
(١٨) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ١٦٨.
(١٩) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٧/١٧ وفيه احاديث اخرى في الموضوع نفسه.

لكن المستشرق الفرنسي اقتصر على بعض اقوال اهل العلم في صورة يبغى بها التهكم.

وحقا ان سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن لانها تشتمل على اصل عظيم من اصول الاسلام، يعدل ثلثه، وهو معرفة الله، وتوحيده، وحمده، والثناء عليه، والاستعانة به، والدعاء من العبد للرب. قال ابن تيمية نقلا عن ابي المظفر منصور بن محمد السمعاني الشافعي في كتابه «الاصطلام»: (انها تصلح ـ اي في الصلاة ـ عوضا عن جميع السور ولاتصلح جميع السور عوضا عنها ولانها تشتمل على ما لاتشتمل سورة ما على قدرها من الآيات، وذلك من الثناء والتحميد للرب والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد..)[20].

اما من جهة التساوي في الثواب فان بعض اهل العلم قد اخذ بهذا القول، وذهبوا الى انه لاحرج على فضل الله، وانه لامانع من ان يخص الله ـ عز وجل ـ بعض العبادات التي ليس فيها كثير مشقة، بثواب اكثر من ثواب ماهو من جنسها، واشق منها، بأضعاف مضاعفة[21].

وذهب آخرون الى انه (لايجوز ان يكون المعنى فله اجر ثلث القرآن لقوله ﷺ: **«من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات»** فيكون ثواب قراءة القرآن بتمامه اضعافا مضاعفة بالنسبة لثواب قراءة هذه السورة)[22].

وقد علل الكرماني هذا الرأي بأن التشبيه في الاصل دون الزائد[23].

---

(٢٠) المصدر السابق: ١٧/١٣ ـ ١٤ وفي الصفحة نفسها «١٣» ينقل عن ابي العباس ابن سريج في تفسيره لهذا الحديث ان القرآن على ثلاثة اقسام: ثلث منه وعد ووعيد، وثلث منه الاسماء والصفات، وهذه السورة «الاخلاص» جمعت الاسماء والصفات.

(٢١) اختار هذا الرأي ونصره الألوسي في تفسيره روح المعاني: ٢٦٨/٣٠.

(٢٢)، (٢٣) روح المعاني للألوسي: ٢٦٨/٣٠.

اما مظاهر الاجلال للقرآن في الفن الاسلامي فانها متعددة، تشمل الجانب الصوتي، والجانب الخطي، والزخرفي، الذي نجده في فن العمارة الاسلامي.

فالقاريء للقرآن (يستجمع نفسه لحظة في البداية، ثم يستهل ترتيله فيبدى استراحات صوتية، وتلحينات، ووقفات يحددها جيدا علم يدعى «التجويد». عندئذ نجد انفسنا في مجال من القداسة تشترك فيه جميع الاديان)[٢٤].

ولقد استخدم الفنانون المسلمون العلم الزخرفي في كتابة بعض نصوص القرآن (اما في اسلوبه الكوفي الشديد التميز باعتدال احرفه المربعة، واما في صيغته السريعة المستديرة التي يتفاوت تزويدها بالمحسنات)[٢٥] وأولوا عناية خاصة ببعض آيات القرآن الكريم، كآية الكرسي التي تذكر بقدرة الله تعالى. وقد اكتشف نص كامل لسورة مريم، في القسم الاسفل من مئذنة جام[٢٦]، في مجاهل آسيا الوسطى.

ان نسخ القرآن، واهداءه للمساجد، كان من فروض التقوى، الذي قام به علماء اتقياء، ورجال بررة، على مر القرون. فالفراء العالم النحوي الكوفي المتوفي سنة ٨٢٢م، كان يفعل ذلك كل سنة لكل من جوامع مدينته.

ولقد كان من الاعمال الحميدة ان يتصدق على محراب بمخطوط لكتاب الله يكون وقفا لهذا المسجد.

(وكان الملوك يتبادلون بلا مقابل الهدايا من المصاحف المزخرفة

---

(٢٤) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٦٩.
(٢٥) المصدر السابق: ١٧٠.
(٢٦) بلدة في خراسان كما قال المؤلف.

ضمن غلافات هي نفسها بالغة التزويق، ونعرف خطاطين مشهورين امثال ياقوت المستعصمي «المتوفي سنة ١٢٦٨م» كان مصاحفه في مصاف التحف بطريقة صُنعها. . وتزويق المصاحف، قد اقتصر على زهيرات توضع بين الآيات، وافريزات تختلف بدرجة تنميقها، وهي مستوحاة من الفن العربي، وتوضع في بداية السور.

كما ادخلت في هذا التزويق، صفحات العناوين، التي اقصى عنها الفنانون جميع التأثيرات التي يحس انها تأثيرات دنيوية، فنجحوا باستعمالهم للالوان الاولية، والوان الذهب فقط، في تحقيق طرف رائعة في الذوق والمهارة)[٢٧].

لم يقتصر الاحترام الجماعي الذي وجهته الامة للنص القرآني المكتوب فقط، بل امتد الى الحافظين لكتاب الله غيبا، وقرائه، وكل من له معرفة بالوحي السماوي، كهؤلاء المفسرين الذين تدفعهم ضمائرهم لنشر الحقائق المقدسة.

ان اجلال القرآن في عصرنا الحاضر قد اتخذ اشكالا متعددة، تتناسب مع ذلك التقدم العلمي الهائل، فقد سجل القرآن «الكريم» كله «بأصوات مختلفة للقراء على اشرطة كاسيت» وقدر المسؤولون الحكوميون هذا التقدم فعملوا على بثه اذاعيا، كوسيلة فعالة لنشر معرفة القرآن واشاعة محتواه، «انشأت بعض الدول الاسلامية، كمصر والمملكة العربية السعودية اذاعة خاصة للقرآن الكريم».

ان العمل على نشر القرآن «الكريم» وما تضمنه، يرد بوجه خاص، على هؤلاء الماديين الذين اطلق عليهم بعض الناس وصف «العقلانيين».

---

(٢٧) المصدر السابق: ١٧١ ــ ١٧٢.

وقد عرف التاريخ الاسلامي بعض هؤلاء الذين حاولوا ان يتطاولوا على القرآن واعجازه، كالشاعر المتنبي المتوفي سنة ٩٦٥م، والذي (غذى دعايته في شبابه، وتحت تأثيرات القرامطة بمقطوعات من النثر المقفى، هي تقليدات فاشلة، للسور المكية)[٢٨].

وجاء بعده الفيلسوف ابوالعلاء المعري المتوفي سنة ١٠٥٨م فألف تصنيفا من النثر المقفى، ضمَّنه تلك النظرة التشاؤمية التي كانت تغلب عليه، كما عبر فيه عن حكمة يمكن ان تكون غذاء روحيا لمن يسير على نهجه[٢٩].

ثم يقول بلاشير: (كما انه في وقت اشد قربا الينا من اولئك، قصد محمد علي مؤسس مذهب البابية[٣٠] في كتابه «البيان» اكمال وروحنة الوحي الذي تلقاه محمد[٣١] «ﷺ». غير ان هذه المحاولات المنفردة، لم

---

(٢٨) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٧٤.

(٢٩) انظر: المصدر السابق: ١٧٥.

(٣٠) اسمه: علي محمد رضا الشيرازي المولود سنة ١٢٣٥هـ الموافق ١٨١٩م، والبابية هي اصل البهائية، وصاحبها قد اطلق على نفسه اسم «الباب» وهو من الالفاظ التي استعملها الاسماعيلية وكثير من الفرق الباطنية يعنون بها الشيخ او الرأس الذي يحتوي على اسرار المذهب والدعوة السرية. وألف علي محمد كتاب «البيان» واعتقد انه وحي من الله، وانه افضل من القرآن، كما انه ــ اي علي محمد ــ قبّح الله ذكره ــ افضل من محمد ﷺ، وكتابه مليء بالاخطاء من كل لون، كما انه ــ وما الف بعده ــ مما يعتمد عليه البهائيون كـ«الاتقان» و«الاقدس» ليس الا تلفيقات من القرآن، والانجيل، والتوراة، صاغها مؤلفوها ليتطاولوا بها على القرآن، ومن اعجازه المضحك انه جاء في كتاب البيان: (اني افضل من محمد كما ان قرآني افضل من قرآن محمد، واذا قال محمد بعجز البشر عن الاتيان بسورة من سور القرآن، فأنا اقول بعجز البشر عن الاتيان بحرف من حروف قرآني«!!» ان محمدا كان بمقام الالف وانا بمقام النقطة) انظر: كتاب «البابية» للدكتور محمد عبده يماني: ٤١ طبعة دار القبلة طبعة/١ سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٣١) لم تقف البابية عند هذا الزعم بل انها الغت الشريعة الاسلامية ونسختها!! وصدق الله ﴿وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور﴾ سورة لقمان: من الآية ٣٢.

تعمل الا على ترسيخ تمسك الاسلام البالغ بنظرية الاعجاز، الذي دام ثلاثة عشر قرنا من الزمن. ان هذه التقليدات في تحليلها النهائي هي في الواقع ولاء غير مقصود لنموذج يحلم في بلوغ سموه)[٣٢]، اي نموذج القرآن الكريم.

ويشير بلاشير في نهاية كتابه الى الفكر الماركسي ودعاة الاشتراكية الذين اشتد خطرهم على الاسلام، وكان هجومهم عنيفا ــعلى حد قولهــ في وجه التعليم القرآني باعتباره ــمن وجهة نظرهمــ يشكل عائقا لتنشئة الابناء تنشئة تلائم التطور الانساني!!

وقد كان نشر القرآن وتعاليمه في الكُتاب، والمدرسة، والراديو، هو الرد العنيف على الفكر الماركسي والاشتراكي.

(لقد لخص ج. جوميه بيانا لرئيس جامعة الازهر، بثته اذاعة القاهرة في نيسان سنة ١٩٥٦م، يؤكد فيه ان في القرآن علاجا للازمة العالمية الراهنة، هذه الازمة التي قادت العالم بموجتها المادية الى وثنية محدثة. ان مثل هذا التأكيد هو بمثابة الحجر الاساسي لكل بناء دفاعي عن الدين، منذ ايام الشيخ محمد عبده، كما ان هذا الاعتقاد هو نفسه اعتقاد المفسرين المعاصرين مهما كانت نزعاتهم ودرجة تعصرنهم)[٣٣].

لم تكن الادلة التي رد بها علماء المسلمين على الماركسيين والاشتراكيين مقصورة على الادلة الحماسية العاطفية، بل ان فئة من (العقلانيين الشرقيين، والمغاربة، امثال المجددين الذين تحدروا عن مدرسة المنار، ثم تفكير الاخوان المسلمين) قد ردَّت باثباتات ليس اقل جرأة، وانه بامكان القرآن حقا، ان ينشيء مجتمعا لاوجود فيه للتفاوت الاجتماعي

(٣٢)، (٣٣) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧.

وضربوا مثالا لذلك بزهد الصحابي المشهور: ابي ذر الغفاري المتوفي سنة ٦٥٢م[٣٤].

ويستدعي بلاشير ماكسيم رودنسون، ليبين لنا ان (العقيدة السنية القويمة لم يفتها ان تظهر مافي هذه المقترحات الاخيرة من مبالغات خطيرة)، وانما عملت على ايجاد صيغة حد وسط، لكنها صاغت تعليلات دورية وصادرت المطلوب.

وهذا حكم عام كذلك من رودنسون، اذ لم يعدم الاسلام في تلك الفترة المتحدث عنها من أكَّد وسطية الاسلام، وشمول منهجه للدنيا والآخرة والمادة والروح، والعقل والقلب، ولايجوز لاحد من تابعيه على الاقل ان يصف الاسلام بأنه اشتراكي، او رأسمالي، فان الله قد اطلق على منهجه المنزل: «الاسلام» وعلى معتنقيه «المسلمين» ﴿**هو سماكم المسلمين من قبل**﴾[٣٥].

وينقل بلاشير ــ عن رودنسون ايضا ــ (ان واحدا لايستطيع ان ينكر ان الجميع متساوون امام الله، والشريعة الدينية، وان التعاضد ضروري بين اعضاء الامة من المسلمين الحقيقيين، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، فلا يجوز التعرض لمبدأ الملكية الخاصة ولا حتى لمبدأ الحق في الارث)[٣٦].

---

(٣٤) لعل المؤلف يشير الى بعض اتجاهات الاخوان ومؤلفاتهم في ذلك، ككتاب الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله عن اشتراكية الاسلام، لكنه عمم حكمه ليشمل الاخوان المسلمين كلهم!!، ولقد تجاوز اصحاب هذا الاتجاه ذلك الموقف، وتطور فكرهم نتيجة المحن المتتالية، وصار منهج التربية والمشاركة في المؤسسات الدستورية هو ابرز الخطوط، وان كان بعضهم لايرضى بتلك المشاركة التي لاتجدي ولاتنفع مع مسؤولين لايريدون غير العلمانية بديلا!!

(٣٥) سورة الحج: جزء من الآية الاخيرة.

(٣٦) القرآن: نزوله، تدوينه: ١٧٨.

وفي رأي المؤلف ان هذا هو المذهب الاصلاحي المعتدل الذي يستشهد كثيرا بنصوص القرآن والسنة، والتي تثبت احترام حق الملكية، والتبعية المتبادلة بين الطبقات في ظل احكام منصفين وعقلاء[٣٧].

فالعودة الى الاسلام، وتحقيق التوازن في هذا العالم المعاصر، تتجابه فيه مدرستان كبيرتان: مدرسة الرأي، او العقل كما عبر المؤلف ومدرسة الاثر او تغليب النص.

وفي نظر كلا المدرستين، بل في نظر العالم الاسلامي، ان المنهج القرآني ـ او الواقعة القرآنية كما في تعبير بلاشيرـ يجب ان يكون كافيا لاستنباط اي نوع من الحلول التي تقتضيها الظروف السياسية والاجتماعية **﴿أولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾**[٣٨].

ويلقى المؤلف سؤاله الاخير: فهل تكون الطريق التي اختطها القرآن والسنة ـ اذن ـ مجرد امتداد لطرق الماضي؟ ويجيب: ان الاجابة عن هذا السؤال تتعلق بموضوع الغيب كما يسميه القرآن[٣٩].

هو غيب في مكنونات الله، عالم الغيب والشهادة، لكنا على يقين من ان الصحوة الاسلامية التي امتدت الى انحاء كثيرة في العالم الاسلامي ـ على مافيها من سلبيات ـ ستجعل الامتداد لطريق واحد من طرق الماضي، هو طريق الله المستقيم **﴿وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[٤٠].

---

(٣٧) المصدر السابق: ١٧٩.
(٣٨) سورة العنكبوت: ٥١.
(٣٩) انظر: القرآن: نزوله، تدوينه: ١٧٨.
(٤٠) سورة الانعام: ١٥٣.

الخاتمة
مقترحات وتوصيات

من خلال دراستنا لفكر المستشرقين وكتبهم نقترح ــ حفاظا على عقيدة ابنائنا، وسلامة اخلاقهم، وطهارة مبادئهم ــ مايلي:

ــ وقف ايفاد البعثات الدراسية المتعلقة بالدراسات الانسانية والاجتماعية، كتلك التي تتناول العقيدة والشريعة واللغة والفلسفة وما اليها.

ــ اما البعثات الخاصة للعلوم الطبيعية الكونية، او العلوم الرياضية كالطب والهندسة والتقنية الحديثة، وعلوم الفلك، والزراعة وغيرها، فيمكن اختيار المبعوثين اختيارا خاصا من الناحية العقدية والسلوكية (فضلا عن الجانب العلمي والتفوق فيه). فماذا يجدي ــ للمجتمع المسلم ــ حصول طبيب على اعلى الشهادات، تعلم بين ايدي القوم، وعاد الينا، منحرف الفطرة، معوج السلوك، خرب الذمة والدين؟!

ــ واتساءل: لماذا لانستقدم نحن ــ فيما يتعلق بالدراسات الانسانية والاجتماعية كما اطلقوا عليها ــ غير المسلمين، وبخاصة المعتدلين منهم ذوي المراكز المرموقة، او من سيكون لهم شأن في بلادهم لندرس لهم الاسلام، عقيدة، وشريعة، ومنهجا، ولغة، وفلسفة، مع التركيز بوجه خاص على علم مقارنة الاديان بحيث لايُدرِّسه الا من تأهل لذلك وتميز فيه (انظر: ماذا فعلت محاورات الداعية الكبير: احمد ديدات مع علماء الديانتين اليهودية والمسيحية، نريد رجالا من طراز ذلك الرجل).

ولايستغرب احد ذلك النهج، فهو الاسلوب ذاته الذي انتهجه اليهود والنصارى، بل والملاحدة، مع المسلمين زمنا طويلا.

ــ وقف المعونات المادية بكل اشكالها لتلك المعاهد والكليات والمراكز الاستشراقية، التي كان بعضها يحتضر لولا معونات مادية من بعض

دول الخليج كما جاء في ثنايا هذا البحث!!

ــ انشاء اقسام في الجامعات الاسلامية لغير المسلمين تعرض الاسلام من اصوله الاصيلة الصحيحة، من جانب، ومن جانب آخر تميط اللثام عن زيف الفكر الاستشراقي، وتكشف اكاذيب المستشرقين ومكرهم، وخبثهم، وتهافت مناهجهم، التي ملأوا الارض ــزورا وبهتانا ــ انها مناهج موضوعية محايدة!!

ــ دعوة الحكومات الاسلامية، واهل السعة والغنى من المسلمين لدعم الدعوة الاسلامية، ونشرها ــ ودحض الاستشراق اسلوب من اساليب الدعوة ــ بحيث يتسنى لنا:

ــ الرد على المستشرقين وكتبهم، وابحاثهم، ومقالاتهم، بلغتهم الاجنبية، وبأكثر من وسيلة اعلامية لبيان كذبهم، وتحقير مطاعنهم، ودحض مفترياتهم.

ــ عمل مسح شامل لكل الكتب المترجمة او التي كتبوها باللغة العربية او لغة بلد مسلم، وتفنيد ماجاء فيها، وبيان باطلها، حماية لابنائنا من سمومها، اذ ان السكوت على مافي كتبهم ودراساتهم من زيف وباطل، يتضمن موافقة ضمنية على مافيها من كذب وزور.

ــ وفي ردنا على المستشرقين يجب ان تصحبنا عزة ديننا وعقيدتنا، وعظمة شريعتنا وتراثنا، وان يتخلص بعضنا من عقدة الشعور بالنقص امام الحضارة المادية، فان التقدم المادي ــ اذا لم يواكبه تقدم مماثل في جانب الروح والخُلق ــ كان ضرره عظيما، وخطره جسيما على الجنس البشري كله ﴿**حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس**﴾ «سورة يونس من الآية ٢٤».

واجبنا ان نلفت انظار المستشرقين الى ماهم فيه من دنس ورجس، ووحل وطين، وان نبين لهم عقائدهم المحرفة واخلاقهم الهابطة، وخطرهم الفاسد المفسد.

ان الهجوم خير وسيلة للدفاع.

ثم ان سمو عقيدتنا، واحكام شريعتنا، وطهارة مبادئنا، واخلاقنا ونظمنا، تدفعنا الى ان ننظر الى مافي ايدي غيرنا من علم، وان نحذر ــ في الوقت نفسه ــ ان نضع الاسلام ــ لحظة ــ في قفص الاتهام، فانه يعلو ولايعلى عليه ﴿**ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ «سورة آل عمران ٨٥».

ــ السعي الحثيث لدى الحكومات، واهل الحل والعقد، للعمل على وقف المدارس التبشيرية، في بلاد المسلمين، والمعاهد، والكليات الاجنبية، ذات الصبغة الخاصة والتي يدرس فيها كثير من المستشرقين، وتلاميذهم من المستغربين، ورهبان وراهبات، فيصوغون باسلوبهم الخبيث الماكر، جمهرة كبيرة من ابناء المسلمين، ويشكلون عقولهم، ويفسدون عقائدهم، في قلب بلادهم!!

يذكر الاستاذ جلال كشك «في صحيفة الوفد ١٩ من ربيع الآخر سنة ١٤١٠هـ الموافق ١٨ من نوفمبر سنة ١٩٨٩م صفحة ٧» انه جاء في احصائية ان للفاتيكان ٧٧ «سبعا وسبعين» مدرسة في مصر!!

كيف تقوم مدارس او كليات في اي بلد مسلم، يخالف نظامها النظام التربوي التعليمي العام؟!

ثم كيف يتحصَّن ابناؤنا بالعقيدة القوية، ويتربون على الولاء لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وقد وضعناهم نحن بأيدينا اختيارا منا «!!» بين ايدي معلمين واساتذة يهود ونصارى وملاحدة«!!»؟

وكأننا لم نقرأ قوله سبحانه: ﴿**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**﴾ «سورة النساء من الآية ٨٩» او قوله تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾ «سورة البقرة من الآية ١٢٠».

ـ ان المسؤولية كبيرة في اعادة النظر في النظام التربوي التعليمي العام والخاص، في كثير من الدول الاسلامية، وبخاصة تلك الدول التي فصلت بين التعليم المدني والتعليم الديني اتباعا لسياسة «دنلوب» الاستعمارية وامثاله من المندوبين المستعمرين في بلاد الاسلام، والتي لايزال العمل بها حتى هذه اللحظة ـ بكل اسف ـ في كثير من ديار المسلمين.

لقد ادخل التعليم المدني في التعليم الديني «في الازهر مثلا» تحت اسم التطوير «وهو تطوير يحتاج الى تطوير ومراجعة شاملة» ولكن بقي ان يدخل التعليم الديني في التعليم المدني، على ان يكون التعليم العام لا انفصال فيه بين تعليم مدني وتعليم ديني، وان يكون شاملا لابناء الامة كلها حتى التعليم الثانوي، الذي يبدأ فيه التخصص النوعي الموسع، والذي يضيق كلما تدرج الطالب في سلم التعليم، مع مراعاة ان يصاحب هذا التخصص نوع متناسب من العلوم الدينية الضرورية للحياة ـ من جهة ـ كالعقيدة وبعض ابواب الفقه مثلا، ونوع آخر متلائم مع المواد التي يدرسها الطالب من جهة اخرى، كدراسة طالب الطب او الزراعة، او الفلك مثلا، ما جاء في القرآن والسنة، وما ألفه علماء المسلمين مما يتعلق بهذه العلوم فيرتبط الماضي بالحاضر، ونبني كما بنوا، ونعلو كما علوا، وعلى الله قصد السبيل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على سيد الاولين والآخرين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين.

مصادر البحث

ـ القرآن الكريم.
ـ ابن كثير ومنهجه في التفسير للمؤلف «د. اسماعيل سالم» مطبعة اسامة الطبعة الاولى ١٩٨٤م.
ـ الاسفار المقدسة في الاديان السابقة للاسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي طبعة دار نهضة مصر «بدون تاريخ».
ـ البابية للدكتور محمد عبده يماني طبعة دار القبلة الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٩م.
ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي «بدر الدين محمد بن عبد الله المتوفي سنة ٧٩٤هـ» تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم طبعة عيسى الحلبي الطبعة الاولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.
ـ التعريف بالقرآن والحديث للشيخ محمد الزفزاف طبعة المكتبة العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
ـ تفسير ابن جرير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لابي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.
ـ تفسير سورة النور للمؤلف «د. اسماعيل سالم» نشر دار الصحوة الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير اسماعيل بن عمر بن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ طبعة عيسى الحلبي.
ـ تفسير القرطبي «الجامع لاحكام القرآن» لابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري المتوفي سنة ٦٧١هـ طبعة دار الشعب بمصر.
ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية المتوفي سنة ٧٢٨هـ طبعة المدني «بدون تاريخ».
ـ دراسات في علوم الحديث للمؤلف د. اسماعيل سالم عبد العال ـ طبعة دار الهداية الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ الرسول حياة محمد: ر. ف. بودلي ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد فرج مطابع دار الكتاب العربي.
ـ روح المعاني للآلوسي لابي الفضل شهاب الدين السيد محمد المتوفي سنة ١٢٧٠هـ طبعة دار احياء التراث العربي.
ـ السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وزميليه طبعة مصطفى الحلبي ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.
ـ الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري المتوفي سنة ٣٩٣هـ تحقيق احمد عبد الغفور عطار طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
ـ صحيح البخاري «مع فتح الباري» طبعة دار الفكر ـ بيروت.
ـ صحيح مسلم طبعة صبيح القاهرة.
ـ في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب طبعة دار الشروق الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
ـ القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره للمستشرق الفرنسي بلاشير ترجمة رضا سعادة وتعليق الشيخ محمد علي الزغبي طبعة دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٧٤م.
ـ ما اصل الانسان؟ اجابات العلم والكتب المقدسة لموريس بوكاي ترجمة ونشر مكتب التربية العربي للدول الخليج ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
ـ مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح طبعة دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٤م.
ـ مجموع فتاوى ابن تيمية المتوفي سنة ٧٢٨هـ جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد النجدي وولده طبعة ادارة المساحة العسكرية ـ القاهرة.
ـ المصباح المنير للفيومي «احمد بن علي المقري المتوفي سنة ٧٧٠هـ» طبعة المكتبة العلمية ـ بيروت.
ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقي ـ طبعة دار الشعب بالقاهرة.
ـ مقارنة الاديان: اليهودية للدكتور احمد شلبي الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤م.
ـ صحيفة الوفد ١٩ من ربيع الآخر سنة ١٤١٠هـ الموافق ١٨ من نوفمبر سنة ١٩٨٩م.
ـ مجلة اكتوبر العدد ٥٤٩ في ٥ رمضان سنة ١٤٠٧هـ الموافق ٣ من مايو سنة ١٩٨٧م.

محتويات الكتاب